الجـزء الأول : زعماء وقادة

- عبء الرجل الأسود.
- نيريرى المعلم الأول «ملك الحكمة»
- كوامى نكرومًا زعيم الوحدة الإفريقية مات مسمومًا
- سيكوتورى الثائر الهادئ
- كينيث كاوندا.. أسد إفريقيا العجوز
- فرح عيديد أمير حرب أم زعيم وطنى؟
- الرئيس خاما
- الكاباكا فى أوغندا يبعث الممالك القديمة
- عيدى أمين.. مهرج أم زعيم
- بوكاسا الطاغية
- الملك «سوبهوذا» بقايا زعامات اندثرت
- ماركوس جارفى مبدع شعار «إفريقيا للإفريقيين»
- دى بوا.. أبو الجامعة الإفريقية

عـبء الرجـل الأسـود

المهتمون بالشئون الإفريقية يعرفون قدر المؤرخ البريطانى الشهير بازيل ديفيدسون ومؤلفاته القيمة عن إفريقيا، وكتاباته العديدة المتنوعة التى أنارت دروب هذه القارة المظلمة، التى اشتدت ظلامًا بعد ثلاثة عقود من الاستقلال. وكتاب «عبء الرجل الأسود ولعنة الدولة القومية» لهذا المؤرخ العظيم يعد من أهم الكتب التى تثرى قارئه، يقول مؤلفه: «ما أريد أن يصنعه هذا الكتاب هو أن يولد الجدل الذى يتعين علينا أن نفكر فيه بجدية بالنسبة لجذور مشاكل إفريقيا».

الكتاب خلاصة خبرة ٤٠ عامًا من البحث والتنقيب فى تاريخ إفريقيا لرجل مجرب وخبير وودود، رجل عجوز أمضى حياته كلها فى الترحال عبر إفريقيا يقرأ ويفكر ويكتب، وهو مكتوب بحمية نادرة، وباستبصار فريد خليق بأن يثير فينا حوارات مهمة؛ فهو من أكثر الكتب تحليلاً للأوضاع السياسية والاجتماعية فى إفريقيا ومن أهمها، يتغلغل فى جذور مشاكلها، يطرح تساؤلات، ويقدم إجابات، ويعلق الحلول فى رقاب الجميع.

وبازيل ديفيدسون هو أيضا محلل سياسى معروف كتب الكثير عن تاريخ إفريقيا قديمه وحديثه. وله ٢٦ مؤلفًا عن هذه القارة المظلومة التى كرس حياته للغوص فى أعماقها والكتابة عنها بشكل مستقل ومنحاز لها، فهو ليس مؤرخًا تقليديّا ولكنه صال وجال فى تاريخ وماضى هذه القارة، وكتب عنها بتعاطف شديد، إنه يعد أول مؤرخ أوروبى يكتب بطريقة إيجابية عن الإفريقيين وتاريخهم، فى الوقت الذى لا يرى المؤرخون الأوروبيون التقليديون شيئًا فى إفريقيا إلا تاريخ الأوروبيين فيها، ويمكن أن يضيفوا إليه بعض تاريخ العرب فيها، أما الإفريقيون فى نظرهم فليس لديهم تاريخ، ولكن بازيل رأى الأمور بشكل مختلف، ونذر نفسه لهذه المهمة.

ومعرفة بازيل ديفيد سون بإفريقيا أتت بطريق المصادفة، ففى خلال الحرب العالمية الثانية كان فى طريقه لينضم إلى وحدته العسكرية فى القاهرة. وتعطلت طائرته فى مكان ما بشمال نيجيريا فى نقطة غير معروفة، يقول: «هبطت الطائرة فى صحراء مسطحة ليست بذات خصائص ولا سمات محددة، وأشار لى الطيار الشاب الذى كان معى إلى مكان بعيد، وقال: هناك كانت منذ ٥٠٠ عام مدينة إفريقية كبيرة لم يسمع عنها أحد اسمها كانو، وتأكدت بعد ذلك أنه مضى عليها ٧٠٠ عام أو أكثر، وعرفت من يومها أن لإفريقيا تاريخًا، ومن المحتمل أن يجد الإنسان إذا بحث شيئًا عنها، وأمضيت أمسياتى باحثًا ومنقبًا عن آثار هذه المدينة.

ومنذ ذلك الوقت عكف ديفيدسون على دراسة تاريخ إفريقيا، وبدأ يحفر فى ماضى إفريقيا الذى كانت كل النظريات تقول إنه ماضٍ غير موجود، واكتشف بازيل حضارات عظيمة، وحضارات تطورت كانت موازية لغيرها من الحضارات التى قامت فى العالم.

وكتاب «عبء الرجل الأسود» يبحث فى جذور الوهن الإفريقى وعدم استجابة القارة لتحديات التغيير والتطور، وهو يطرح تساؤلات مهمة: لماذا إفريقيا صارت أكثر فقرًا عما كانت عليه يوم الاستقلال؟ ولماذا الإفريقيون يبدون غير قادرين على العمل معًا جنبًا إلى جنب؟ ولماذا الانقلابات العسكرية والحروب الأهلية وقتل المدنيين الأبرياء بلا تمييز، والفساد والوهن الجارى من مدد طويلة؟ ولماذا يبدو الإفريقيون أنهم أناس يستغيثون فى طلب النجدة والمساعدة من الخارج، سواء كانت هذه المساعدة طعامًا أو وسائل لمقاومة الجفاف والمجاعة وانهيار الإنتاج الزراعى، أو أسلحة للتدمير ولقتل بعضهم بعضًا، أو لدعم موازين مدفوعاتهم، أو لتفادى الإفلاس أو الانهيار الاقتصادى.

إن الفرضية الأساسية التى يقدمها ديفيدسون فى كتابه هذا هى أن الأفكار الغربية حول القومية والدولة القومية والسيادة تشكل العمود الفقرى للوهن الإفريقى، فهو يرى أن هذه المفاهيم غير ملائمة لإفريقيا لأنها انبعثت من البقايا المتتالية للعبودية والاستعمار، ومنذ القرن التاسع عشر تغيرت المفاهيم الأوروبية التى يرغب الإفريقيون فى تقليدها الآن. إن الثورة الصناعية وعالمية التجارة وتكنيك الإدارة والتنظيم أدى إلى تغيرات خطيرة فى المفاهيم الغربية، ووضعت قيودًا عليها، فلماذا يتبناها الإفريقيون!!

إعادة أسر العبيد لثقافة المستعمر

يضع بازيل ديفيدسون اللوم فى هذا على عاتق من يسميهم «ربيكاتيف» أى العبيد الذين أعيد أسرهم، فمن هم هؤلاء؟ يعرفهم بأنهم العبيد الذين أعاد البريطانيون أسرهم بأفكارهم الغربية التى لا تصلح لواقع إفريقيا، العبيد الذين اقتنصوا من السفن المتجهة إلى الأمريكتين عندما قررت بريطانيا إلغاء تجارة الرقيق، وهؤلاء كانوا مختلطين، بعضهم جاء من غرب إفريقيا، والبعض من شرق القارة، والبعض من مناطق أخرى، ويصفهم الكاتب بقوله: «هم إفريقيون تمامًا، حسب أصلهم، ولكنهم انفصلوا عن إفريقيا بتجربة حادة من تجارب الاغتراب. لقد أسلمتهم إفريقيا إلى العبودية وأعادتهم أوروبا ـ وبخاصة إنجلترا ـ إلى العبودية مرة أخرى بعد أن تحولوا إلى المسيحية بنشاط حملات التبشير فى القرن ١٩، هؤلاء الضحايا المحررون أو المعاد أسرهم حسب تسميته نظروا إلى بريطانيا باعتبارها مخلصهم ورسول الرعاية الإلهية والرحمة، ثم أرجعوا إلى إفريقيا وترابطوا جنبًا إلى جنب حول مدينة فريتاون (عاصمة سيراليون الحالية) فى الساحل الغربى لإفريقيا مصممين على بدء حياة جديدة، وألقوا بأنفسهم فى مجال الأعمال والإدارة، وصاروا من البرجوازيين البالغى الثراء، وذهب بعضهم إلى بريطانيا للمزيد من الدراسة والبحث، هؤلاء القوم لا يعرفون شيئًا عن داخل إفريقيا ولا يهتمون بمعرفة شىء عن هذا الداخل، ونظروا إلى أنفسهم على أنهم وكلاء التغيير باعتبار أن إفريقيا تحتاج لكل أشكال التحضر والمدنية على الطراز الغربى، وأن الإفريقى لكى يكون متمدينًا عليه أن يتوقف أن يكون إفريقيا، أى يتخلص من إفريقيته.

العادات القبلية عقبات ضد التحرر

انبثق عن هذا الاغتراب والتعليم الغربى نمطان من الوطنيين: **النمط الأول** يتكون من الرؤساء والملوك الذين بقوا يؤمنون بالتقاليد الإفريقية رغم اكتسابهم علم الغرب، وهم من أطيح بهم فى النهاية. **والنمط الثانى** أنصار الحداثة الإفريقيون المتعلمون فى الغرب الذين يرون أنفسهم أنهم الوارثون الحقيقيون للحكام الاستعماريين، وهم من فرضوا سيطرتهم على الحكم كالرؤساء الأوائل من أمثال د. باندا فى مالاوى، وسنجور فى السنغال، وهوفيه بوانييه فى ساحل العاج، وحتى جومو كينياتا الذى كان كل ما يصبو إليه أن تمارس كينيا الحكم الذاتى فى الكومنويلث البريطانى، شأنها شأن كندا ونيوزيلندا.

وهؤلاء المتعلمون فى الغرب أنصار الحداثة يميلون لقبول الحلول الغربية للمشكلات الإفريقية، وتقبلوا المفاهيم الأوروبية للدولة القومية والسيادة، واعتقدوا أن هذه المؤسسات هى المناسبة للإفريقيين المعاصرين ليتعاملوا مع مشاكل العصر. وكانوا فاقدى الصبر للتقاليد الإفريقية، ولأى شكل يتعلق بالعادات القبلية، واعتبروها عقبات فى تحرر إفريقيا، واعتقدوا أن مستقبل إفريقيا يجب أن يستند على النظريات الأوروبية، وأن يستهدى بخبرات التاريخ الأوروبى، وكل ما كان ينشده هؤلاء بمناداتهم بالقومية أن يحلوا محل الحكام الاستعماريين. ولكنهم ما إن يصلوا إلى السلطة ويجدوا أنفسهم وسياساتهم تواجه تحديًا مع ممثلى تلك التقاليد وجموع الشعب العادى ما إن يحدث ذلك حتى تجدهم لا يترددون فى الهجوم والإدانة والاعتقالات، وصاروا يقمعون غيرهم ويضطهدونهم مثل خلفائهم سادة الاستعمار، ويلجؤون أيضًا إلى قاعدة فرق تسد. وكذلك فعل المثقفون والعلماء أنصار الحداثة، صاروا يتغافلون عن حاجات الجماهير، وبدلاً من أن ينصرفوا إلى الدراسات المفيدة لهذه الاحتياجات لمجتمعاتهم صاروا مهمومين بالمناقشات والمجادلات الفلسفية والأيديولوچية بغير أهداف، إلا أن يكونوا تحت الأضواء فى مجالات الأيديولوچية الدولية.

إن معظم القادة القوميين الإفريقيين يعتقدون أن ما هو مطلوب لإظهار منجزات الاستقلال هو صبغ التراث الاستعمارى بالصبغة الديمقراطية على النمط الغربى، وهذا ما أفشل الدولة القومية الإفريقية؛ إذ ابتعدت تمامًا عن تقاليد وطموحات وإمكانات مجتمعاتها، لقد فشلت الدولة القومية فى الدور التاريخى الذى افترضته لنفسها فى إفريقيا، وفقدت شرعيتها السياسية، وكفاءتها الاقتصادية، وأصبحت الجماهير الإفريقية فى ظلها يفرون من الجوع والبطالة والقمع والاضطهاد الذى تتسبب فيه حكوماتهم، واتسعت الهوة بين الحكام والمحكومين.

تحديات إفريقيا الجديدة

والآن بعد أكثر من أربعة عقود من الاستقلال تواجه إفريقيا وضعًا جديدًا من الحقائق الداخلية والعالمية. لقد فشل أنصار الحداثة فى تحقيق أهدافهم. ومن الناحية الاقتصادية صارت إفريقيا أكثر فقرًا مما كانت عليه فى فجر الاستقلال، وزاد الشعور بفقدان الأمن الجماعى فى كثير من الأقطار الإفريقية، وانكمش اقتصادها وصارت كثير

من المجتمعات الإفريقية متصدعة ومهددة من حيث الأمن والنظام. وانغرس الخوف فى كل فرد من الرئيس فما دونه، فالرئيس يخاف الشعب؛ لأنه يمكن أن يصوت ضده أو يقصيه، والشعب يخاف من الرئيس؛ لأنه يمكن أن يعصف به أو يسجنه أو يقتله، ويخشى من جبروت شرطته، والشرطة تخاف الشعب من إثارته القلاقل وعدم الاستقرار، والجيش يتهدده الانقلابات وعدم الأمان، وهكذا لم تعد السيادة مقدسة ولا محترمة، وهذه هى الحقائق الصماء.

أما على المستوى العالمى، فإن انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفييتى أفرز أوضاعًا جديدة، فما سمى بالنظام العالمى وضع حقائق مغايرة وفق نسق مختلف، فالمنافسة فى التجارة الدولية حلت محل السياسات والأيديولوچيات فى التعامل. إنه نظام يقوم على الاقتصاد الحر، والمشروع الخاص، والتكتلات الاقتصادية، والأسواق المشتركة، وعالمية شبكات الاتصال، عالم يعتبر النمو الاقتصادى هو الملك، والرأسمالية هى المملكة، فماذا تستطيع إفريقيا أن تصنع فى مواجهة هذه التحديات الجديدة؟ إنها تستنجد بأمريكا وأوروبا من أجل المساعدة والإرشاد.

دروس للتعلم

ومع كل هذا الضباب الذى يغلف القارة الإفريقية، فإن بازيل ديفيدسون ينهى كتابه بنظرة متفائلة إذ يقول: إن انقضاء أربعة عقود أو أكثر من الزمان لا يمكن اعتبارها فشلاً عامّا وكبيراً للقارة الإفريقية، أو أنها مضت بغير شىء نافع لأبنائها، لا يمكن إنكار أن إفريقيا ارتكبت كثيراً من الأخطاء، ولكن كيف يمكن للإفريقيين أن يتعلموا أن يصنعوا الصواب بغير التجارب والمجادلات، إن المطلوب الآن هو الطاقة والإرادة السياسية لتوحيد المكاسب الإيجابية التى تفيد فى تنمية إفريقيا، والتى لا تختلط بمطالب تغيير تناسب فقط الحكام السائدين، وعلى القارة أن تنظر إلى ماضيها برغبة التعلم من دروس الماضى الإيجابية، فهناك دروس كبيرة يمكن أن تتعلمها حتى من خلال فترات الاستعمار وما بعد الاستقلال أما إلقاء اللوم على الاستعمار الجديد والإمبريالية فلن يحل أى مشكلة من مشاكلها.

تلك خلاصة خبرة ٤٠ عامًا من البحث والتنقيب فى تاريخ وأوضاع إفريقيا سجلها بازيل ديفيدسون فى كتابه الرائع **«عبء الرجل الأسود ولعنة الدولة القومية»**.

نيريرى المعلم الأول «ملك الحكمة»

توفى فى مستشفى سان توماس بلندن فى ١٤ أكتوبر ١٩٩٩م، الرئيس التانزانى السابق «جوليوس نيريرى»[١] عن عمر يناهز ٧٧ عامًا. ونشر خبر وفاته فى أسطر قليلة لا تتناسب مع دور هذا الزعيم الإفريقى العظيم الذى يعد بحق من أبرز زعماء الاستقلال الوطنى والتنمية الشعبية فى إفريقيا. وسوف يذكر فى تاريخ إفريقيا الحديث بأنه أبو الأمة التانزانية، كان بطلاً، ورجل دولة، وصانع سلام، ومثقفًا، وعملاقًا بكل المقاييس.

أطلق عليه شعبه «المعلم الأول.. الفيلسوف ملك الحكمة» وأحبه الناس خارج بلده بمثل ما أحبوه فى داخلها، فهو شخصية كاريزمية اهتمت بالجانب الأخلاقى فى التصرفات والسياسات بشكل متفرد، وقاد على مدى ٢٤ عامًا أكبر دولة فى شرق إفريقيا، وتنحى عن السلطة طواعية وبإرادته عام ١٩٨٥م. ورغم اعتزاله الحكم ظل يسيطر على العقل الجماعى للتانزانيين ولأهالى شرق إفريقيا مدة ١٥ سنة أخرى تلت ابتعاده حتى رحيله.

وعلى مدى حياته كلها كان رجلاً بسيطًا، وكان واحدًا من الرؤساء الإفريقيين القلائل الذين تركوا السلطة بإرادتهم، رغم أنه كان مدركًا أن من سيخلفونه ليس لدى

---

(١) ولد جرليوس نيريرى فى مارس عام ١٩٢٢م، وهو ابن أحد رؤساء قبيلة «زاناكى» الصغيرة، وعمل راعيًا لغنم والده قبل أن يلتحق بالمدرسة الابتدائية فالثانوية التابعة للكنيسة الكاثوليكية، ثم التحق بجامعة ماكيريرى فى أوغندا حيث نال دبلوم التدريس عام ١٩٤٥م. وفى عام ١٩٤٩م التحق بجامعة أدنبرج وهو أول إفريقى يلتحق بجامعة بريطانية حيث حصل على ماجستير فى الاقتصاد، وعاد إلى وطنه ظل يعمل بالتدريس حتى عام ١٩٥٤م حين استقال وتفرغ للعمل السياسى وهو أول رئيس لجمهورية تنجانيقا فى ديسمبر ١٩٦٢م ثم أصبح أول رئيس لجمهورية تنزانيا بعد الاتحاد مع زنجبار فى إبريل ١٩٦٤م.

أى منهم كفاءته القيادية ولا شخصيته الكاريزمية، استقال وذهب إلى مزرعته المتواضعة فى بوتاياما، واستمتع بالزراعة، وبأن يلعب دوراً فى الحياة الريفية. وبقى تحت الطلب باعتباره رجل دولة عالميّا ووسيطًا فى المشاكل الإفريقية والدولية.

والسؤال الذى يحتاج إلى إجابة: كيف استمر نيريرى يحوز هذه المنزلة المبجلة طوال سنوات حكمه وما تلاها؟. الإجابة ببساطة: **أولا:** إنه على خلاف الحكام الأفارقة التقليديين لم ينهب ثروة بلاده، وعاش حياة تتصف بالتقشف، ولم يغير منزله البسيط فى دار السلام طوال سنوات رئاسته التى استمرت ٢٤ عامًا. **وثانيا:** أنجز الوحدة الوطنية لتانزانيا، فرغم وجود ما يبلغ ١٢٠ شعبًا مختلفًا استطاع نيريرى أن يربط بينهم وجعلهم شعبًا متلاحمًا يشكل واحدًا من أقوى الأمم فى ساحل القارة الشرقى، واليوم فإن شعب تانزانيا يتكلم لغة واحدة هى (السواحيلى) وتندر فيه التوترات القبلية والعشائرية التى تعم شعوب القارة من مشرقها لمغربها، وذلك بفضل روح «الأندوجو» أى الأخوة التى أشاعها نيريرى، وهذا ما بوأه مكانة أبى الأمة، وظلت المحافظة على الوحدة والاستقرار هى مهمته الأولى. **وثالثًا:** أقام وحدة بين بلدة تنجانيقا وجزيزة زنجبار ودمجهما فى بلد واحد يحمل اسم جمهورية تانزانيا، وتكاد تكون هذه هى الوحدة الوحيدة التى تمت فى إفريقيا واتسمت بالاستمرارية. **ورابعًا:** استطاع أن يسيس جيش تانزانيا، وحمى بلده من الانقلابات العسكرية. **وخامسًا:** قام بدور الوسيط فى الكثير من المنازعات فى منطقة البحيرات الكبرى بوسط إفريقيا.

ونيريرى من قبيلة زاناكى، وهى من أصغر قبائل شمال تنجانيقا، وكان والده زعيمًا لهذه القبيلة الصغيرة الفقيرة، وظل نيريرى يرعى غنم أبيه حتى سن الثانية عشرة عندما قرر والده أن يعلم ابنه. وفى المدرسة الابتدائية أبدى ذكاء وفطنة لفتت انتباه أساتذته وحثوه على مواصلة الدراسة الثانوية فى مدرسة سان فرانسيس فى دار السلام، ثم التحق بجامعة ماكريرى حيث حاز على دبلوم التدريس، ثم سافر إلى بريطانيا ليصبح الطالب الإفريقى الأول من شرق إفريقيا الذى درس فى جامعة أدنبره.

فى بريطانيا أثارت دراسته والإقامة فيها فترة من الوقت اهتمامه بالاشتراكية الفابية الإنجليزية (اشتراكية حزب العمال البريطانى) وشغلت المحور الأساسى فى تفكيره، وتأثر بأفكار الزعيم الهندى المهاتما غاندى، وخاصة تعاليمه فى التصدى للاستعمار

بالمقاومة السلبية واللاعنف. وهكذا امتزجت الفابية والغاندية برؤى وأحلام الشاب الإفريقى لتشكل معًا الموقف الفكرى لنيريرى، ولتكون دليله النظرى لتحقيق أحلام الفردوس الإفريقى فى تانزانيا. وقد تبلور هذا الموقف الفكرى فيما عرف بنظرية «الأوجاما» وهى الاشتراكية على الطريقة الإفريقية المرتكزة على القرى الجماعية والاعتماد على الذات فى التنمية.

تاريخه السياسى

فى بداية الخمسينيات أسس مجموعة من الضباط الاستعماريين جمعية فى تنجانيقا سميت «جمعية تنجانيقا الإفريقية» لكى تكون منتدى للحوار للإفريقيين. واهتم نيريرى بهذا الأمر وانضم إليها وشكل فرعا لها وصار رئيسه، وقد نظر نيريرى لهذه الجمعية باعتبارها خطوة فى طريق تكوين حزب حقيقى.

وفى اليوم السابع من الشهر السابع (٧ يوليو) عام ١٩٥٤م أسس نيريرى حزب الاتحاد الوطنى الإفريقى لتنجانيقا (حزب التانو) وصار أول رئيس له. وفى عام ١٩٥٩م ثار الشعب التنجانيقى كغيره من دول القارة مطالبًا بالاستقلال، ولكن الحكومة الاستعمارية فى ذلك الوقت كانت تشعر بأن الإفريقيين غير مؤهلين لهذا المطلب، فوضعت نظامًا معقدًا للاستفتاء على الاستقلال بغية حماية الأقليات، فخصصت عشرة مقاعد لكلٍّ من الإفريقيين والأوروبيين والآسيويين، وكل صاحب صوت أيًا كان لونه عليه أن يصوت لشخص واحد من هذه الجماعات العرقية، ورغم وجود المرشحين الآسيويين والأوروبيين فإن الكل أيد حزب التانو.

لم يعارض نيريرى السلطات الاستعمارية فى طريقة هذا الانتخاب الذى يؤكد على الأقليات، ولكنه أصر أن تكون الانتخابات القادمة بالاقتراع العام وبغير تمييز عرقى أو قبلى أو عقيدى.

وفى العالم التالى فى أغسطس ١٩٦٠م جرت الانتخابات بطريقة مباشرة، حيث حصل حزب التانو على ٥٨ مقعدًا من مجموع ٧١ مقعدًا. وفى أكتوبر من العام نفسه أعطيت البلاد حكمًا ذاتيًا، وأصبح نيريرى زعيم حزب التانو أول رئيس وزراء فى البلاد.

وفى ذلك الوقت كان نيريرى المثالى الحالم مهتمًا بأن تشارك تنجانيقا استقلالها مع جيرانها فى كينيا وأوغندا، لذلك أخر بإرادته إعلان استقلال بلاده ليحصل الآخرون على الاستقلال معًا. واحتفلت دول شرق إفريقيا بالاستقلال الذى أعلن فى ٩ ديسمبر ١٩٦١م، وأصبح نيريرى رئيسًا للبلاد. وفى ٢٦ إبريل ١٩٦٤م نجح نيريرى فى دمج تنجانيقا مع جزيرة زنجبار فى بلد واحد، وتمت الوحدة على أساس أن يكون لزنجبار حكم ذاتى ويكون لها رئيس مستقل، فضلاً عن رئيس الاتحاد. وفى عام ١٩٧٧م صدر دستور الوحدة الذى لا يزال ساريًا.

فلسفة نيريرى

يمكن أن نلخص حكم نيريرى فى ثلاثة عناصر أساسية هى: الأوجاما، ونظام الحزب الواحد، وتسييس الجيش وتنوعه ودمجه فى المجتمع.

كانت الاشتراكية بالنسبة لنيريرى تعنى تنمية الثروة وإصلاح التعليم ورفع مستوى المعيشة للجماهير. وكان هذا يعنى أن الاهتمام يجب أن يتوجه إلى الأكثر فقرًا، وهم فى المناطق الريفية وليسوا فى المدن. وقد رأى أنه لا يستطيع أن يستأصل الفقر من بلده المتخلف الواسع الأرجاء بواسطة الوسائل الرأسمالية التقليدية، وهو لم يكن مستعدًا لأن يضع تانزانيا تحت نير السيطرة الاقتصادية للاتحاد السوفييتى، ومن ثم نظر فى طريق ثالث وظن أن تانزانيا تستطيع أن تسير فى طريق خاص بها باستخدام التعاون والاكتفاء الذاتى مما يتركز على المزارع الريفى، فابتدع مفهومًا جديدًا هو الأوجاما، أى الأسرية، وفيها يمكن للفلاحين أن ينتجوا زراعاتهم ويقوموا بالتعليم الابتدائى والخدمات الطبية بالتعاون والاعتماد على النفس. وكانت هذه فكرة ثورية غير مسبوقة فى إفريقيا المعاصرة.

الأوجاما

شرح نيريرى معنى الأوجاما بأنها تعنى باللغة السواحيلية «الأسرية» أى علاقات الأسرة ذات الجذور العميقة فى التقاليد الإفريقية. وبناء الأمة يعنى بناء الجماعة بواسطة الروح الأسرية التقليدية. ومفهوم «الأسرية» يتضمن ثلاث خصائص أساسية: المساواة

والتعاون، والعمل. فالأوجاما لا تعترف بالطبقات، سواء كان التقسيم الطبقى معتمداً على ملكية وسائل الإنتاج أو على العلاقات العنصرية، ولكنها تؤكد معنى المساواة الإنسانية، وهى تتطور من خلال جماعية الإنتاج وتمجيد العمل، وتدين الكسل. ومفهوم الأسرية يضع الفرد فى بؤرة اهتمامه، وهو لا ينظر للفرد منعزلاً عن غيره، بل كعضو فى الجماعة فيهتم كل فرد برفاهية الآخرين. والفرق بين الأوجاما والاشتراكية الأوروبية أن الأخيرة هى وليدة الثورة الزراعية والثورة الصناعية، وأن الأوجاما تعارض الرأسمالية التى تنشد بناء المجتمع على أساس من استغلال الإنسان للإنسان. وهى تعارض الاشتراكية بمفهومها السائد الذى ينشد بناء المجتمع على أساس فلسفى يرى حتمية الصراع بين الإنسان والإنسان. أما الأوجاما فهى «موقف فكرى» موقف يعترف بالمساواة الإنسانية، ويتجنب المشاعر الطبقية والاستغلال، ويركز على العمل الأخلاقى، فهى تعلن الحرب على غريزتين إنسانيتين: غريزة تجميع الثروة والسيطرة على الآخرين من خلالها، وغريزة الخمول والتطفل على جهد الآخرين.

وتمنع تقاليد الأوجاما على القادة تكوين الثروات وامتلاك الأسهم فى الشركات الخاصة وامتلاك المنازل بقصد تأجيرها، وتمنع بوجه عام أن يتقاضى أى فرد فى مركز قيادى أى دخل خلاف مرتبه. وقد أظهر العمل فى حزب التانو وقيادات الحكومة أن الأغلبية الغالبة قد التزمت بهذه المبادئ، فمن بين ٢٠٣ أعضاء فى البرلمان لم يفشل إلا اثنان فقط فى مراعاة هذه الضوابط.

وقد تم تأميم المؤسسات الصناعية والتجارية عام ١٩٦٧م كتطبيق لمبدأ الملكية الجماعية والعامة لمصادر الثروة الوطنية، وكوسيلة لنزع أية جذور لتطور الطبقة الرأسمالية فى تانزانيا (وقد بدت بعد التأميم بعض ظواهر القصور فى تسيير هذه المشروعات فى الإنتاج).

أما قرى الأوجاما فهى الوحدات الجديدة التى يجب أن يتحول إليها الريف، إذ تأتى الأسر من عزلتها لتحيا جنبًا إلى جنب فتعمل معًا وتتقاسم ثمار عملها، ويقدم الحزب والحكومة الخدمات المختلفة كإنشاء المدارس والمستشفيات وشق الطرق وتقديم الجرارات والمخصبات الزراعية وكل الخدمات الأخرى.

ولكن الأوجاما والتعاونيات الزراعية لم تنجح، فالزراعة فى تانزانيا كغيرها من الدول الإفريقية بدائية ومتخلفة وإدخال الوسائل الحديثة والزراعة على المجال الواسع

والعمل الجماعى لم يألفه الفلاحون. فالفلاحون يريدون أن يعملوا لأنفسهم ولأسرهم وليس للجماعات الأكثر بعدًا نسبيًا؛ ولذلك لم يتعاونوا ولم ينتجوا إنتاجًا متناميًا.

وعندما وجد نيريرى أنه لا يستطيع أن يقنع الناس بالإنتاج الجماعى لجأ إلى سياسة استخدام القوة ففرض النظام الجماعى، وحاول أن ينتزع مليونى مزارع بالقوة ويدفعهم للقرى الجماعية، حيث افترض أنهم يمكنهم أن يقوموا بخدمات مركزية بالمساعدة والنصيحة، ودفع الناس للعمل فى مزارع الدولة وتأميم إنتاج المزارعين.

ولكن كل ذلك فشل، فقد كانت الدوافع مفقودة. وكانت البنية التحتية من طرق وجسور ومصادر طاقة مفقودة، وكان التدريب ناقصًا وصارت تانزانيا أكثر فقرًا بعد تجربة الجماعيات عما كانت قبل ذلك (وإن نجحت فى نشر التعليم الابتدائى والرعاية الصحية).

يضاف إلى ذلك أن الاقتصاد التانزانى حورب بتخفيض سعر البن، المحصول الرئيسى للبلاد، وعزوف الدول الغربية المستوردة عن شرائه، وفرض صندوق النقد الدولى تخفيض العملة التانزانية، فانهار الاقتصاد الوطنى، وفشلت سياسة الأوجاما والسياسات الاشتراكية التى آمن بها نيريرى. وقد اعترف نيريرى بفشله فى تجربته الكبرى قبل أن يترك السلطة عام ١٩٨٥م بمدة طويلة، كما فشل كل المثاليين أمثاله الذين حاولوا شق طريق ثالث للتطور الاقتصادى. ولم يكن أمام الحكومات المتعاقبة بديل إلا أن تبتلع الدواء الذى وضعه صندوق النقد الدولى. وكان تعليق نيريرى «إن صندوق النقد الدولى قد صار بديلاً عن الاستعمار الإمبريالى، إنه الآن يعتبر أداة لإمبراطورية اقتصادية تسيطر على اقتصاديات هذه الدول، وسيظهر لدول العالم الثالث يومًا أنهم ليسوا أحرارًا، وعليهم البحث عن وسائل أخرى لكفاحهم» وقد صدقت نبوءته.

نظام الحزب الواحد

إن النظام السياسى يعتبر نظامًا جيدًا إذا نجح فى أن يقدم أقصى قدر من الاستقرار والوحدة والسلام والأمن، فضلاً عن تقديمه درجة مقبولة من مستوى المعيشة المادى للغالبية العظمى من السكان، وفى الوقت نفسه يحافظ على العدالة والحرية والحق فى

إبداء الرأى فى القرارات التى تؤثر فى حياة المواطنين، وإن أحسن شكل للديمقراطية هو الشكل الذى يمكنه إنجاز هذه الأهداف سواء كان حزبًا واحدًا أو أحزابًا متعددة.

وقد اختار نيريرى نظام الحزب الواحد، وكان هذا هو النظام السائد فى جميع الدول حديثة الاستقلال فى الستينيات، وفى تصوره أن تانزانيا لا تحتاج بشكل مباشر إلى نظام تعدد الأحزاب بقدر ما تحتاج إلى تنشيط واسع للتكوين الديمقراطى فى إطار الحزب الواحد، مع تبنى سياسات اقتصادية مرنة تتضمن التشجيع المنضبط للمبادرات الخاصة، سواء فى المجال المحلى أو المجال الدولى. وهنا يقول نيريرى: «أنا لست ضد نظام تعدد الأحزاب، ولكن القول بأنه أكثر النظم صلاحية لتانزانيا هو قول فيه تبسيط شديد لمسألة بالغة التعقيد، وهو قول ساذج ومضلل. إن نظام تعدد الأحزاب أثبت نجاحه فى البلاد التى تعتمد على قاعدة اقتصادية ثابتة وقوية، حيث يكون الباعث للعمل السياسى لدى معظم الناس هو تحقيق الذات، أما من حيث يكون الفقر هو القوة الأساسية التى تدفع للاهتمام بالسياسة فسيكون من الصعب احتمال المعارضة؛ لأن الهجوم هنا لا يكون على آراء الإنسان ولكن على حياته نفسها، وتانزانيا لم تبلغ بعد التنمية الاقتصادية التى تجعل الناس ينجذبون للسياسة بمثل الأهداف الأوروبية».

وبالنسبة لتانزانيا، فإن المحافظة على الوحدة والاستقرار هى المهمة الأولى لأى سياسة، وأى قرار يهدد الوحدة يتعين الابتعاد عنه، ونظام تعدد الأحزاب يحمل بذور تحطيم وحدة الوطن.

ولكن رياح التغيير نحو الديمقراطية اجتاحت إفريقيا فى التسعينيات، وربطت المعونات الخارجية بالتعددية الحزبية، وهذا ما أجبر تانزانيا كغيرها من الدول الإفريقية أن تطرح سياسة الحزب الواحد. وفى فبراير ١٩٩٠م ـ بعد أن ترك نيريرى الحكم بخمس سنوات ـ دعا نيريرى بصفته رئيس حزب شاما شاما بندوزى (الحزب الوحيد الحاكم) دعا أهالى تانزانيا للمشاركة فى الجدل المفتوح حول موضوع تعدد الأحزاب. ووافقت الحكومة على تعديل بعض مواد دستور جمهورية تانزانيا ليسمح بالتعددية وفتح الباب للتنوع الحزبى، ولكن المشكلة أن غالبية التانزانيين ـ وبخاصة الذين تضمهم شريحة العمر بين ٣٠ ـ ٤٠ سنة ـ لم يعرفوا قط أى نظام سياسى آخر غير الحزب الواحد، ومن هنا فإن وجدت أحزاب سياسية فى تانزانيا فهى لا تستطيع أن تتداول السلطة مع الحزب الحاكم.

تسييس الجيش وتنويعه

بعد أن تولى نيريرى السلطة بقليل واجه انتقادات تتعلق بقيادته، وفى ديسمبر ١٩٦٣م استقلت زنجبار، وهى جزيرة تقع فى مقابل ساحل تنجانيقا، وبعد شهر واحد فإن حكومتها الأفروعربية ذات الخبرة أطيح بها وظهرت هستيريا الانقلابات تنتشر على طول شرق إفريقيا. وفى تنجانيقا تمردت كتيبة تنجانيقا إلى حد هدد حكم نيريرى، وقد اضطر نيريرى للاختفاء مدة، وكان من الواضح أنه مشلول عن اتخاذ أى قرار، ولم يرغب أن يستدعى القوى الاستعمارية القديمة لتحميه، خاصة أن الجنود المتمردين طلبوا شحنات أسلحة من نظام الجزائر الوليد.

ولكن نيريرى سرعان ما ظهر وفصل الكتيبة الأولى من كتائب المتمردين فى تنجانيقا، وشكل قوة دفاع شعبية جديدة أحلها محلها، ثم أتت العملية السياسية بعدها التى تحول بها الموقف لصالحه. فقد ساعد الساسة فى زنجبار على استعادة السلطة، ثم ربط زنجبار بتنجانيقا مكونًا جمهورية تانزانيا المتحدة تحت رئاسته.

بعد ما حدثت هذه التمردات فى الجيش التى شملت دول شرق إفريقيا كلها فى الستينيات اضطر القادة إلى إعادة التفكير فى نمط الجيوش الذى تريده، وكيف يمكن منع إحداث اضطرابات تشمل الأمة. وتوصل نيريرى إلى نظرية تسييس الجيش وتنويعه ودمجه فى المجتمع. فإلى جانب الفروع التقليدية للقوات المسلحة: البرية والجوية، فقد أوجد فروعًا جديدة مثل الميلشيات الشعبية والخدمة الوطنية، وهذه الفروع تعطى تدريبًا فى القدرة على الهجوم والقتال، مما يعنى أن استخدام القوة لم يعد مقصوراً على الجنود المحترفين، وبذلك أصبح من الصعب على فريق واحد من القوات المسلحة أن يقوم بانقلاب ناجح، كما أن إجماع الفروع كلها وانتظامها من أجل هذا العمل أمر صعب جدًا.

ثم أقدم على خطوة أخرى، وهى عملية تسييس الجيش واندماجه، وصار لممثلى الجيش مقاعد فى كل مؤسسة حكومية، وأعطوا وظائف مدنية، وبعض المدنيين أرسلوا للحصول على تدريب عسكرى عال وعادوا إلى وظائفهم مع صفوف ضباط الجيش، وبذلك صارت الحكومة مدنية وعسكرية فى نفس الوقت. ورغم أن نيريرى اقترح ـ مع النظام الديمقراطى الجديد ـ أن يسمح للجنود بالاختيار أن يبقوا فى الحزب أو ينضموا

إلى جماعات المعارضة أو ينصرفوا بعيداً عن الانتماءات الحزبية، فهو يرجح أن يظل رجال العسكرية مرتبطين بالحياة السياسية فى البلاد. فهذه الطريقة حسب قوله هى التى استطاعت بها تانزانيا أن تتفادى الانقلابات منذ استقلالها عام ١٩٦١م.

* * *

ظل نيريرى مسئولاً عن أسطورة الوحدة والاستقرار فى البلاد حتى بعد أن ترك الحكم، بقى كما كان يقوم بدور المراقب، وظل قوة خلف المسرح السياسى، ومن النادر ما كان يصدر أى قرار أو أى تعيينات فى القمة من غير أن يكون له قول فيها.

ظل طوال حياته متعلقًا بشعبه، شاعراً بنبضاته ومشاكله، محاولاً قدر استطاعته أن ينهض به، ويتلمس السبل الممكنة لإسعاده، حتى ولو بفعل بسيط وساذج، مثلاً عندما وجد أن طلبة الجامعات الفقراء أصبحوا عاجزين عن دفع رسوم التعليم ومواصلة دراستهم ـ بعد أن انتهى عصر مجانية التعليم ـ لم يجد نيريرى ما يتبرع به سوى عصا يده التى لازمته طوال حياته، فعرضها لتباع فى مزاد علنى وخصص دخلها لصالح هؤلاء الطلبة المطالبين بمصاريف باهظة، إذ كان نيريرى «المعلم الأول» ـ كما يلقبه شعبه ـ يؤمن بأن القرن الواحد والعشرين لابد أن يكون الجميع فيه متعلمين، حتى قاطع الأخشاب وساقى المياه سيطلب منه استخدام آلات متطورة عن الآلات البدائية التى يستعملها.

وعصا نيريرى هذه كانت عصا متواضعة للغاية مصنوعة من الخيزران، وإنما اكتسبت قيمتها من رفقتها لنيريرى، فمنذ أن بدأ مسيرته السياسية لم يتركها أبدًا من يده، ولم يشاهد يومًا بدونها. وأجرى المزاد على العصا، وتنافس عدد كبير من التانزانيين للفوز بها، ورسا المزاد على رجل أعمال تنزانى يدعى أحمد بورا دفع فيها خمسة ملايين شلن تانزانى. ورغم سعادة نيريرى بالمبلغ فقد اندهش أن يجد فى تانزانيا هذا العدد الضخم من الأثرياء التانزانيين التى نمت ثرواتهم بهذا القدر خلال خمس سنوات فقط منذ أن تخلت تانزانيا عن الاشتراكية عام ١٩٩٢م.

ويقال إن المليونير أحمد بورا بعد أن اشترى العصا وسار مزهوّا بها فى شوارع المدينة شعر بالاكتئاب، إذ ووجه بعاصفة من الانتقادات، فكيف يسمح لنفسه أن يقبض على عصا المعلم الأول، ولما زادت السخرية منه، ولم يستطع أن يتحمل نظرات الناس

الغاضبة أرجع العصا إلى صاحبها، ولا يعرف أن كان استرد ثمنها أم لا. ويؤكد البعض أن العصا هى التى رفضت أن تبقى عند بورا، وعادت مرة أخرى إلى سيدها، وصدقت أسطورة أنها تقاوم أن تفقد.

هذه القصة الطريفة التى يتندر بها التانزانيون تحمل فى طياتها مغزى آخر، إذ كيف تتكون هذه الثروات وتظهر طبقة الأثرياء الجدد بهذه السرعة خلال خمس سنوات فقط منذ أن تحولت تانزانيا عن الاشتراكية، وأين كان يخفى هؤلاء ثرواتهم، ولكن تانزانيا ليس البلد الوحيد الذى نكب بذلك، فقد حدث نفس الشىء لأغلب شعوب العالم الثالث، وتفشت ظاهرة الثراء الشديد للقلة، والفقر الشديد لجموع الناس الذين فقدوا مكاسب الاشتراكية، ويواجهون قسوة الرأسمالية.

ورغم المرارة التى شعر بها نيريرى فقد ظل يؤمن بالاشتراكية، ومحاولة بيع عصاه لتسديد رسوم الطلبة المعوزين هى ما استطاع أن يقدمه لفقراء شعبه الذين آمنوا به. ومات نيريرى بسرطان الدم، ولكن بقيت ذكراه فى تاريخ إفريقيا الحديث باعتباره بطلاً إفريقيّا، وواحدًا من الزعماء القلائل الذين تركوا السلطة بإرادتهم.

* * *

كوامى نكروما زعيم الوحدة الإفريقية مات مسموماً

كتاب مثير صدر عن كوامى نكروما[1] الزعيم الإفريقى العظيم، أول من دعا للجامعة الإفريقية وإنشاء حكومة موحدة لإفريقيا، منذ مطلع الأربعينيات قبل استقلال القارة الإفريقية بسنوات عديدة، وهذه الأفكار التى آمن بها منذ الصغر وعمل على تحقيقها بعد أن أصبح أول رئيس لغانا هى التى جعلت الغرب يكرهه، وجعلت رفاقه الزعماء الأفارقة يخشونه، وهى أيضًا ما عجلت بنهايته، فلم يقبلها المستعمر الأجنبى، ولم يرحب بها الرؤساء المحليون.

الكتاب يحمل عنوان «كوامى نكروما سيرة جديدة» كتبته «جان ميلن» الباحثة الأسترالية المولد البريطانية الجنسية التى صاحبت نكروما على مدى خمسة وعشرين عامًا منذ أن قابلته عام ١٩٥٧م حتى وفاته عام ١٩٧٢م، وظلت تعمل قريبة جدّا منه باعتبارها مساعد باحث له، ثم ناشراً لكتبه.

«وجان ميلن» تبلغ الآن ٧٩ عامًا، وسبق أن أصدرت كتابًا عن نكروما سطرت فيه سيرته الذاتية حتى مماته، ولكنها فى كتابها الحديث الأخير ألقت أضواء أكثر حول

(١) ولد كوامى نكروما فى سبتمبر ١٩٠٩م وكان والده حداداً فى قرية نكروفل الواقعة فى أقصى الجنوب الغربى لغانا. ودرس فى المدرسة الابتدائية التبشيرية الرومانية. وفى عام ١٩٢٦م ذهب إلى أكرا ونال شهادة التأهيل للتدريس وعمل مدرسًا، وفى عام ١٩٣٥م سافر إلى الولايات المتحدة وحصل على ماجستير فى الفلسفة من جامعة بنلسفانيا، ثم سافر إلى إنجلترا لدراسة الاقتصاد وعاد إلى وطنه عام ١٩٤٧م لينشئ حزب المؤتمر الشعبى الذى قاد البلاد إلى الاستقلال. وقد حصلت غانا على الحكم الذاتى فى عام ١٩٥٤م ثم الاستقلال التام فى إطار الكومنويلث فى مارس ١٩٥٧م، وأصبح نكروما أول رئيس لجمهورية غانا المستقلة.

نهايته، وكشفت كيف خططت وكالة المخابرات الأمريكية للانقلاب الذى أطاح بنكروما، وأخطر من ذلك اتهمت المخابرات الأمريكية بقتله بالسم البطىء.

تبدأ «جان ميلن» الكتاب فور وصول الرئيس الغانى إلى بكين عاصمة الصين فى ٢٤ فبراير ١٩٦٦م، بعد رحلة طيران طويلة من بانجون (فى بورما)، استقبله فى المطار السفير الصينى فى أكرا، وقال له: «سيدى الرئيس لدىّ أخبار سيئة، لقد حدث انقلاب فى غانا». وكان نكروما حينذاك يقوم ببعثة سلام لهانوى بدعوى من الرئيس الفيتنامى هوشى منه الذى كان ينشد طريقًا للسلام يخرجه من الحرب مع أمريكا. فى البداية ظن نكروما أنه أخطأ السمع، ثم تأكدت له الحقيقة.

كان هذا أول انقلاب أكثر دموية يحدث فى تاريخ غانا، ولا أحد يعرف عدد من قتل من الجانبين، ولكن يقدر العدد بنحو ١٦٠٠ قتيل، فضلاً عن بضع مئات من الجرحى. ورغم أن الانقلاب كان مفاجأة لنكروما فإن سحبه ظلت تتجمع لمدة طويلة قبل أن يترك أكرا. ولعل اقتناع نكروما بالاشتراكية وراديكاليته فى الدعوة للجامعة الإفريقية كانتا من أهم الأسباب التى عجلت بالإطاحة به. والحقيقة أن نكروما لم يكن وحده من الزعماء الأفارقة من آمن بالاشتراكية وقتها، خاصة قبل أن تتكشف أخطاؤها بعد سقوط برلين وتفكك الاتحاد السوفييتى، إن الآباء المؤسسين لإفريقيا تصوروا أن الخلاص يكمن فى الاشتراكية بالنظر إلى ما شاهدوه أيامها من أن الاتحاد السوفييتى قد انتقل بالاشتراكية إلى أن صار قوة عظمى بعد ٤٠ سنة فقط من الثورة الروسية منذ عام ١٩١٧م.. كان الأفارقة لديهم العذر فى هذا الاعتقاد فى ذلك الوقت.

وكانت الجريرة الأخرى لنكروما هى اتجاهه نحو حكومة موحدة لإفريقيا، وإتاحته فرصًا لتدريب الثوار داخل بلده وإنشاءه قواعد لإعداد المقاتلين الإفريقيين من أجل الحرية، واستضافته للاجئين السياسيين من جنوب إفريقيا وموزمبيق وروديسيا وأنجولا وغينيا بيساو.. إلخ، وهى الجهود التى أفرزت القادة الوطنيين أمثال سام نجوما فى ناميبيا وروبرت موجابى فى زيمبابوى وكنيث كوندا فى زامبيا وكاموزو باندا فى مالاوى وفرانس فانون فى الجزائر، وغيرهم كثير إما أنهم زاروا غانا أو عاشوا فيها، وكل ذلك خلق مشاكل بين نكروما وبين الغرب؛ إذ إن ظهور إفريقيا قارة قوية موحدة لها صوت قوى فى الشئون الدولية والقادرة على إدارة شئون نفسها كان يشكل أخباراً سيئة للدول العظمى.

وقد كتب نكروما بعد الإطاحة به «إنهم يريدون أن يحطمونى أنا وغانا؛ لأننا نقف فى مقدمة الصراع الإفريقى من أجل التحرر». ولكن آخر ما كشفت عنه جان ميلن هو أن نشر نكروما عام ١٩٦٥م كتاب «الاستعمار الجديد آخر مراحل الاستعمار» الذى كشف فيه عن أعمال المؤسسات الدولية المالية الاحتكارية أغضب حكومة الولايات المتحدة، ورأت فى هذا الكتاب خطراً، وتسبب فى قطع المعونة عن غانا التى كانت تبلغ ٣٥ مليون دولار. وتعلق جان ميلن قائلة: ومنذ هذا التاريخ صارت أيام نكروما معدودة فى الحكم.

وطبقًا للشهادات التى وردت فى كتب حررها مسئولون فى وكالة المخابرات الأمريكية فإن ميزانية المخابرات الأمريكية بالنسبة لأكرا زادت؛ وذلك من أجل الإطاحة السريعة بنكروما. بدءوا بتغيير السفير الأمريكى الأبيض فى أكرا وأتوا بدلاً منه بسفير أمريكى إفريقى هو فرانكلين وليامز الذى كان رفيقًا لنكروما فى جامعة لنكولن سنة ١٩٤١م. وبعد الانقلاب كتب نكروما فى كتابه «الأيام السوداء فى غانا» عن خيانة رفيق دراسته له، وهو اتهام أزعج السفير وليامز ازعاجًا شديداً.

وقد حاول د. مارفين دوتش الذى كان رئيسًا لجامعة لنكولن أن يبرئ هذا السفير الأمريكى وهو على أبواب الخروج من عمله، فكتب فى ٢١ يوليو عام ١٩٦٩م رسالة لنكروما قال فيها: «وأنا أستعد لترك عملى أود أن أكتب كلمة فى صالح فرانكلين وليامز، إن مستر وليامز هو شخص مرح ونشيط، وأنا لم أره مصدومًا بمثل ما رأيته بسبب ما شعرت أنت به من اشتراكه فى أحداث غانا، وقد أكد لى شخصيّا أنه لم يكن لديه أدنى علم بالانقلاب». ولكن نكروما لم يكن مقتنعًا بهذا الكلام، وقال لجان ميلن: إنه يستبعد تمامًا أن يكون وليامز غير عالم بما يحدث فى سفارته من ضباط المخابرات الأمريكية.

وقد ذكرت «جان ميلن» فى كتابها أنه بات مقبولاً الآن بشكل عام أن وكالة المخابرات الأمريكية هى من خططت للانقلاب، وتأكد هذا الاشتراك فى كتاب «البحث عن أعداء» الذى كتبه عضو سابق فى المخابرات الأمريكية هو جون ستوكويل، ونشر عام ١٩٧٨م، كشف أن مقر وكالة المخابرات الأمريكية فى أكرا أعطى ميزانية كبيرة، واستبق علاقات وطيدة مع المتآمرين فى الانقلاب، وفى داخل رئاسة وكالة

المخابرات فى أمريكا فإن مقر أكرا أعطى صلاحيات كاملة، وإن رئيس هذا المقر «هواردبن» كوفئ على نجاح الانقلاب بأن رقى إلى منصب رئاسى فى الوكالة.

كيف حدث الانقلاب؟

اعتمد نجاح الانقلاب على وجود نكروما بعيدًا عن غانا، وكانت بعثة السلام لهانوى فرصة ممتازة. أيد البعثة فى البداية مؤتمر رؤساء وزارات الكومنويلث عام ١٩٦٥م، ولكنها أجلت بسبب أن هارولد ولسون رئيس الوزراء البريطانى كان يريد أن يرأس البعثة فى حين أن هانوى لم تقبل إلا نكروما.

وقد أرسل الرئيس هوشى منه دعوة شخصية لنكروما ليرأس وفدًا آخر، وكان نكروما حينذاك يخطط لموضوعات تتعلق بالتفرقة العنصرية لجنوب إفريقيا، ولطرد جنوب إفريقيا من الكومنويلث، وكان رصيده العالمى كبيرًا جدّا فى هذا الوقت.

وبينما كان نكروما يستعد للذهاب إلى فيتنام فى يوليو ١٩٦٥م أبلغه هوشى منه أن تأمينه فى هانوى لا يمكن ضمانه، إلا إذا أوقف الأمريكيون قصفهم لفيتنام. فأرسل نكروما وزير خارجيته إلى واشنطن ليطلب من الرئيس الأمريكى لندون جونسون أن توقف أمريكا قصفها لهانوى ليستطيع الذهاب إليها، (وهذا يشبه طلب صدام حسين الإذن الأمريكى لغزو الكويت). وقد وجدت المخابرات الأمريكية فى هذا الطلب فرصة ذهبية لإخراج نكروما من أكرا، فأكد له الرئيس جونسون أنه سيكون مؤمنًا تمامًا فى هانوى وأن هوشى منه إنما يخلق الأعذار. وقبل ثلاثة أسابيع من مغادرة نكروما لأكرا طبقًا لما تذكره جان ميلن فإن الرئيس جونسون أرسل مبعوثًا هو مينون وليام إلى أكرا ليشجع نكروما على الذهاب، حتى تحقق وكالة المخابرات الأمريكية خططها التى كانت تعتمد على وجود نكروما خارج غانا.

وهكذا سافر نكروما فى ٢١ فبراير سنة ١٩٦٦م، وبعدها بيومين حدث الانقلاب، وبعد أشهر قليلة نشرت صحيفة إيجيبشان جازيت القاهرية أن واحدًا من قبيلة نكروما (قبيلة إنزيما) الذى كان همزة الوصل بين المخابرات الأمريكية وبين رجال الانقلاب المحليين قد قتل؛ لأنه يعرف كثيرًا عن وقائع الانقلاب، وكان اسم هذا القتيل أميهيا.

وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٨م كتب نكروما إلى شيرلى ديبوا زوجة دى بوا التى كانت أرسلت له قصاصة الصحيفة المصرية (إيجيبشان جازيت) والتى ذكرت أن أميهيا قتل حتى لا يتكلم، كتب لها نكروما أن لديه معلومات من مصادر موثوق بها بأن أميهيا قتل لهذا السبب.

وبعد ذلك بعام عندما ذهب رئيس توجو «أياديما» ليزور حكومة الانقلاب فى غانا كتبت جان ميلن تقول: إنه زار سد فولتا والمصانع فى أكرا وتساءل من فعل كل ذلك؟ فذكر له الموجودون: إنه نكروما، فرد عليهم رئيس توجو «ولماذا قمتم بالانقلاب عليه؟ لم تكن هناك حاجة للانقلاب». وبسبب هذا التعليق ساءت العلاقات، وألغى حفل العشاء الذى كان سيقام على شرفه.

نكروما يذهب إلى غينيا

من بكين تلقى نكروما دعوة من الرئيس سيكوتورى زعيم حركة الاستقلال فى غينيا ورئيسها ليأتى ويعيش فى كوناكرى، كما تلقى دعوات مماثلة من رئيس تانزانيا جوليوس نيريرى ورئيس مالى موديبوكيتا والرئيس عبد الناصر. واختار نكروما كوناكرى لقربها من غانا؛ لأنه كان يأمل أن يعود سريعًا إلى السلطة فى بلده.

كتبت جان ميلن تقول: ذهب نكروما إلى كوناكرى بأرصدة قدمها له الروس عندما ذهب إلى موسكو فى طريقه من هانوى إلى كوناكرى، كما قدم له الصينيون بعض المعونات. وأرسل له رئيس أوغندا ملتون أوبوتى والرئيس التانزانى نيريرى مبعوثين يحملون حقائب دبلوماسية تحتوى على نقود؛ فقد كان كلٌّ منهم يريد أن يعود نكروما إلى أكرا، وكانوا واقعيين إلى حد إدراكهم أن أمرًا كهذا لن ينجز بغير المال.

لم يكن لنكروما أرصدة فى بنوك أجنبية. وحسابه فى بنك باركليز فى أكرا الذى كانت تدفع فيه راتبه عندما كان رئيسًا للدولة، هذا الحساب جمدته حكومة الانقلاب، لذلك كان فى حالة اعتماد على كرم أصدقائه السياسيين.

وبصرف النظر عن هؤلاء الذين يطلبون المال لينفذوا مخطط العودة إلى الحكم، فقد واجه نكروما نفقات تتعلق باحتياجات أنصاره الذين كانوا معه، فكان نكروما يؤدى

لهؤلاء الغانيين راتبًا أسبوعيّا يمثل نصف ما كانوا يحصلون عليه فى غانا، على أساس أنهم سيحصلون على النصف الآخر عندما يعود نكروما إلى غانا.

ولكن لم يحدث هذا، فعندما ذهب نكروما إلى كوناكرى جذب انتباه وكالات الأنباء الغربية إلى مكانه، وكانت رسائله يطلع عليها الجواسيس، واقتحم مقر إقامته فى كوناكرى بغزاة من البرتغاليين واخترقوا الأشخاص المحيطين به. ولكن نكروما عاش رغم ذلك حتى مات الطاهى الخاص الوفى له آموه فى ٢٠ يوليو ١٩٦٧م.

عندما مات آموه صار من الواضح أن نكروما سيتعرض لخطر شخصى كبير، حتى أن مدام سيكوتورى طلبت أن يحل طاه معين محل آموه، ولكن حل محله طهاة آخرون، تقول جان ميلن: «عندما ذهبت إلى المطبخ تحقق لى أنه لا أمل من التأكد مائة فى المائة أن طعام نكروما مأمون. وبصرف النظر عن الطاهى، فقد كان هناك عدد من الأشخاص موجودين فى المطبخ، وآخرون يذهبون ويجيئون، وعندما بدأ نكروما يشكو من مشاكل فى المعدة بدأت أخشى على صحته».

وكتبت أيضًا «فى نهاية واحدة من زياراتى لكوناكرى، وعندما كنت أشارك نكروما فى وجباته عانيت من آلام حادة فى المعدة مع ارتفاع فى الحرارة لمدة ستة أسابيع بعد عودتى إلى لندن. كنت مريضة بشكل خطير وتنتابنى أعراض تشبه أعراض مرض التيفويد، وخضعت لفحوص مكثفة فى مدرسة لندن لطب الأمراض الاستوائية. وفشلت هذه الفحوص فى بيان حقيقة المسألة أو تفسيرها، حتى الأطباء الذين زاروا منزلى وفحصوا الأشياء التى أستعملها فشلوا فى معرفة السبب».

ثم انهارت صحة نكروما بالتدريج، فى البداية عالجه طبيب روسى ذكر أن نكروما يشكو من اللومباجو، وهو مرض يسبب آلامًا أسفل الظهر، وقد حاول سيكوتورى وعدد من الأصدقاء إقناع نكروما بأن يسافر للعلاج فى الخارج، ولكنه لم يكن متحمسًا حتى لا يسبب سفره تكاسل الغانيين واسترخاءهم فى العمل للعودة إلى السلطة.

فشل العلاج

ولكن بعد ذلك فى عامى ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠م عندما ساءت صحته طلب نكروما من السوفييت مرتين أن يذهب لتلقى العلاج عندهم، فلم يسمحوا له بذلك، وبدلاً من

استضافته أرسلوا إليه اثنين من الإخصائيين إلى كوناكرى يفحصونه، ونصحوه بأنه لا يوجد سبب يستدعى السفر، وأنه من الناحية السياسية فالوقت غير مناسب بأن يترك غينيا.

وتذكر جان ميلن «لم أكن فى كوناكرى عندما وصل الأطباء الإخصائيون، ولكن نكروما كتب يوم سفرهم يذكر لى نتيجة زيارتهم، قال: سواء نصح الإخصائيون أم لم ينصحوا فأنا لا أدرى، ولكنهم اتبعوا العلاج الذى أوصى به الطبيب البلغارى الذى فحصنى قبلهم».

إن طبيعة العلاج لم تكن واضحة، ولكن فى عام ١٩٧١م عندما ذهب نكروما إلى بوخارست فى رومانيا، فإن الطبيب الاستشارى مادرجاك ذكر لجان ميلن أن نكروما عولج بالضبط بعكس ما كانت تتطلبه حاجته، لم يذكر اسم المرض، ولكنه قال: إنه انتشر فى جسمه. وقالت جان ميلن: إن ابن نكروما الأول فرانسيس ـ وهو طبيب على تأهل عال ـ ذكر لها عندما زارته زيارة قصيرة عام ١٩٧٢م لقد كان هناك إهمال جسيم فى علاج والده فى غينيا.

وتضيف جان ميلن: «إنه من غير المقنع أو المتصور ألا يعرف الإخصائيون الروس بمرضه الخطير بعد أن فحصوه عام ١٩٧٠م، وأنا أشك فى ذلك، إنهم كانوا لا يريدون أن يعادوا النظام الانقلابى فى غانا بدعوة نكروما إلى الاتحاد السوفييتى، كان الروس قد أعادوا فتح سفارتهم فى غانا، كما كانوا لا يوافقون على خطط نكروما الثورية، ولا على أفكاره بالنسبة للكفاح المسلح حتى قبل عام ١٩٦٦م؛ إذ كان نكروما يتجه أكثر فأكثر للاعتماد على الصينيين والفيتناميين، وكان ثمة توتر شديد بين الاتحاد السوفييتى والصين فى ذلك الوقت».

وفاته

أخيرًا، استمع نكروما لنصيحة أصدقائه القريبين بأن يترك كوناكرى الذى أقام بها منذ أن أطيح به فى فبراير ١٩٦٦م، يتركها لينشد العلاج الطبى فى الخارج. كان يتوقع أن يذهب إلى موسكو، ولكن أصدقاء فى الحكومة السوفييتية نصحوه بعدم الحضور إليهم.

وأخيراً، فى منتصف أغسطس سنة ١٩٧١م هبطت طائرة تحمل نكروما لبوخارست فى رومانيا، وتقول جان ميلن: إنها اتصلت بطبيب إنجليزى عندما عادت إلى إنجلترا، وعندما سمع الطبيب بوصف حالة نكروما توقع أنه يعانى من سرطان العمود الفقرى الذى انتشر فى البروستاتا والدم. وأخبرها إذا كان هذا التشخيص صحيحاً، فإنه يتوقع له حياة لا تزيد عن ستة أشهر.

تقول جان ميلن: إنها وصلت إلى بوخارست فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٧١م، كان منظر نكروما فى المستشفى يبعث على الحزن، كان يجلس على كرسى كبير وظهره إلى الضوء ينظر بأسى، لم يكن يستطيع الحركة ليترك الكرسى، وبقى جالساً عليه ستة أسابيع، كان شعره رمادياً، وكل شىء فيه رمادياً، قدمه وسيقانه نحيفة من طول الجلوس، وكان بياض عينيه ناصعاً ويداه وجلد بشرته شاحبة، وذكر لها أنه مر عبر الجحيم فى الأشهر القليلة الماضية.. كان كل هذا يعطى انطباعاً بأنه ذاهب بعيداً.

وأخيراً، أتت النهاية فى الساعة ٨,٤٥ دقيقة صباح ٢٧ أبريل ١٩٧٢م، الرجل الذى كان فى صحة جيدة ويزيد عن ٧٥ كيلو تناقص وزنه حتى صار ٥٧ كيلو وتوفى.. وهكذا مات نكروما فى أرض غريبة، وعاش فى أرض غريبة أيضاً ست سنوات قبل وفاته.

نكروما المتمرد

رغم أن نكروما يرقد فى قبره منذ عام ١٩٧٢م، فإنه اليوم صار أكبر فى تقدير المواطنين فى غانا وللإفريقيين، كما صار أكبر فى أعين العالم الغربى الذى كان يخاصم كل مشروعاته ويعمل على إفسادها.

كانت لنكروما آمال كبيرة لغانا ولكل إفريقيا، كان يبغى أن يبنى بلداً نموذجيّاً تستهدى به إفريقيا والإفريقيون، ويثير الإلهام لديهم. كان لديه المال، وكانت غانا بلداً غنيّاً، وكانت بريطانيا تكسب من ورائها قبل الاستقلال، وإذا عدنا إلى الوراء سنة ١٩٤٦م طبقاً للسجلات البريطانية فإن غانا التى كانت تسمى ساحل الذهب، كان لديها أرصدة فى بريطانيا تبلغ ١٠٠ مليون دولار.

وبين عامى ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨م تظهر البيانات أن بريطانيا حصلت على ٧٢ مليون دولار من تصدير كاكاو غانا إلى الولايات المتحدة، وكان الكاكاو واحداً من المنتجات الكثيرة التى كانت تصدرها بريطانيا، ومن هذه المنتجات البوكسيد والنحاس والذهب والماس، وإذا كانت بريطانيا تكسب ٧٢ مليون دولار من تصدير الكاكاو وحده فكم كانت تحصل لندن من تصدير المنتجات الأخرى؟ وخاصة الذهب؟ (ولم يكن اسم ساحل الذهب قد أطلق على غانا بغير سبب).

والسؤال نفسه يمكن أن يوجه إلى فرنسا والبرتغال وإيطاليا، كم كانوا يحصلون عليه من مستعمراتهم؟ وهذا مما نعلم منه لماذا لم يكن نكروما محبوباً من الغرب، إن كفاحه من أجل استقلال غانا وإفريقيا أفقد السادة الاستعماريين فجأة مكاسب مالية ضخمة كانت تذهب من المستعمرات الإفريقية إلى أوروبا مباشرة.

وإن خططه الماركسية جلبت له الأسوأ من ناحية الغرب، وكانت بريطانيا وأمريكا تشكان دائمًا فى أنه ماركسى، وفى خضم الحرب الباردة بين الغرب والسوفييت رأى الغرب أنه لا بد من كسر أجنحة نكروما، وأن تكسر أجنحته بسرعة قبل أن يحلق فى أجواء إفريقيا.

وعمل الغرب ترتيبات لإفشال خطط نكروما السياسية والاقتصادية، وكانوا يعلمون أن غانا هى نجم إفريقيا فى ذلك الوقت، فإذا سمحوا لنكروما أن يحقق طموحاته فى خطط التنمية التى كان من شأنها أن تحول غانا فى بداية السبعينيات إلى بلد مصنع، أو نمر اقتصادى، وساعتها ستتبعه إفريقيا كلها فى طريقه، وهذا مما كان سيهدد مصالح الغرب السياسية والاقتصادية، فى القارة الإفريقية وسيصبح صندوق النقد الدولى والبنك الدولى بغير مصداقية وقتها.

كانت إحدى طرق الغرب لجذب نكروما إلى أسفل هو التعامل مع السعر العالمى للكاكاو. وإن الطلب العالمى على الكاكاو تجاوز العرض فى منتصف الخمسينيات فارتفع السعر عالياً، وفى عام ١٩٥٥م كانت صادرات الكاكاو تمثل ٦٨٪ من تجارة غانا الخارجية، ومن ثم فإن نكروما بعد الاستقلال قد ورث قدرة تمويلية جديدة من شأنها أن تحول غانا سريعًا إلى نمر اقتصادى.

عندما خاض نكروما خطة التنمية السبعية (سبع سنوات) فى بداية الستينيات بعد خطة تنمية خمسية أنجزها كان يقف السعر العالمى للكاكاو عند ٤٨٠ جنيهًا إسترلينيًا للطن. وفى عام ١٩٦٦م عندما أطيح به كان سعر الكاكاو قد انهار إلى ٦٠ جنيهًا إسترلينيًا للطن. وإذا عرف أن الكاكاو كان هو الإنتاج رقم واحد فى التصدير من غانا فيمكن أن نتخيل أثره على الاقتصاد فى عهد نكروما، ولماذا فشل ـ إذا كان قد فشل.

وفى هذا السياق يتضح لماذا كان نكروما المحبوب الأول والمكروه الأول؟ ولماذا لا يوجد زعيم إفريقى آخر كتب عنه كما كتب عن نكروما؟

المعجبون به كان لهم رمزًا كبيرًا، كتب بيتر إبراهامز الكاتب الشهير فى جنوب إفريقيا كتب عنه عام ١٩٥٤م: إن نكروما كان مثل البرج العالى برأسه وأكتافه يعلو بهما على أى سياسى آخر لدى الجماهير الإفريقية.

وقد تنبأ بذلك س. ل. ر. چيمس الكاتب المؤرخ المولود فى ترنداد إذ قدم نكروما عام ١٩٤٥م إلى چورچ بادمور الكاتب المعادى للاستعمار فى الكاريبى، والمحرض الكبير ضده، قدمه له بهذه الكلمات: «يا چورچ إن هذا الشاب يأتى إليك إنه ليس لامعًا، ولكن مع ذلك اصنع ما تستطيع من أجله؛ لأنه مصمم على أن يطيح بالأوروبيين من إفريقيا».

وبالنسبة للإفريقيين، فإن اسم نكروما صار لعدة سنين رمزًا للفكاك من التبعية والإلحاق الذين عانوا منها لعدة قرون.

ولكن بالنسبة لغير المعجبين به، فقد كان نكروما فى نظرهم مستبدًا غير عادى، وصفه الكاتب الآسيوى الكينى على مصراوى بأنه قيصر لينينى، وقال عنه المؤرخ البريطانى هيوستون واطسون عام ١٩٦٦م: إن نكروما يحوز على هستيرية هتلر وغطرسة موسولينى أكثر من العبقرية الباردة للينين.

وكتبت الكاتبة الأمريكية ماريكا شرود التى تؤرخ لتاريخ السود فى مجلة التايمز تقول: إن أسلوب نكروما فى الاستبداد كان أسلوبًا قاسيًا وشاملاً، وإن الآراء حوله تتراوح بين أنه شبه إله أو أنه شيطان، وإن أهميته العالمية والوقت الذى ظهر فيه نجمه فى البلاد الإفريقية المستقلة حديثًا أثر كل ذلك فى تصورات الناس عنه، ولا شك أن نكروما كان شخصية هامة جدًا فى إفريقيا وللشعب الإفريقى فى الفترة ما بين سنة ١٩٤٨ ـ ١٩٦٦م.

* * *

مع اشتداد المعارضة لنكروما داخل بلده والعداء الغربى له، أصبحت الأمور صعبة بالنسبة له، فشدد أكثر من قبضته، واستخدم قانون الاشتباه ضد خصومه ومؤيديه على السواء، خاف الشعب من قيادته وأتت الإطاحة به فى ٢٤ فبراير ١٩٦٦م بمثابة انفراجة للغانيين الذين لم يكونوا يدركون الضغوط العالمية التى كان يواجهها نكروما؛ ومن ثم بدأت عملية الهدم لذكراه، فحل حزبه، وأبيدت كتبه، وكل شىء ينتمى إليه.

ورغم ما قيل عنه وعن فترة حكمه التى لم تستمر سوى تسع سنوات، فإن نكروما سقط وغانا من أكبر الدول الصناعية فى غرب إفريقيا. رغم أنه تجاورها نيچيريا وكوت ديفوار (ساحل العاج)، وهما نموذج للنمط الرأسمالى فى التنمية. كما كانت غانا تتمتع بأكبر مستوى لدخل الفرد، وأولى الدول المنتجة للكاكاو فى إفريقيا، وصاحبة مشروع سد الفولتا.

كذلك لم يكن سقوط نكروما مخلصًا لغانا، فرغم تعدد الحكومات العسكرية ومحاولات الحكم المدنى على النمط الغربى، إلا أن النتائج الاقتصادية كانت عكسية تمامًا، فقد بلغ ارتفاع الأسعار فى غانا حدّا لم تشهده كل دول العالم. وصل التضخم إلى ٣٠٠٪، وبلغت ديون غانا للدول الرأسمالية ملايين الدولارات، وعقد الدائنون حلقات خاصة لمعالجة الموقف فى لندن وباريس دون جدوى، وترك الأمر لصندوق النقد الدولى ليفرض شروطه على الحكومة.

ظل نكروما يردد ـ وهو فى منفاه بكوناكرى بغينيا ـ إن المخابرات الأمريكية والبريطانية والألمانية والإسرائيلية هى التى خططت للانقلاب، ولم يصدقه أحد حتى تكشفت الشواهد من وكلاء المخابرات الأمريكية أنفسهم الذين اعترفوا بأن نكروما أطيح به بموجب خطة رسمها الأمريكيون، وساهم فيها بنو عمومتهم فى أوروبا، وأن أهم أسباب الإطاحة به أن الغرب كان يعارض توجه نكروما إلى توحيد إفريقيا، فهم يدركون أن هذه الوحدة تهدد سيطرة الغرب الاقتصادية والسياسية على إفريقيا؛ لذلك كان لا بد أن يذهب نكروما، المدافع الرئيسى عن وحدة إفريقيا.

وساعدت عدم شعبية نكروما فى بلده فى ذلك الوقت مع المشاكل الاقتصادية التى ظهرت بسبب انهيار سعر الكاكاو أن جعلته فريسة سهلة، ولم تحتج وكالات

الاستخبارات الغربية إلى أكثر من عدد قليل من مخالب القطط من جيش غانا والبوليس وشرطتها لإتمام المهمة.

وتختم الكاتبة جان ميلن كتابها: ولكن بعد ٢٥ عامًا تذكرت غانا الحكمة التى وردت فى الإنجيل القائلة: لا كرامة لنبى فى بلده، وفى الذكرى الأربعين لاستقلال غانا عن الاستعمار البريطانى أقامت الحكومة الغانية احتفالاً مهيبًا نقلت فيه جثمان الرجل العظيم إلى النصب الجديد الذى شيدته فى البقعة نفسها التى أعلن فيها نكروما استقلال بلده فى ٦ مارس ١٩٥٧م، وأطلقت اسمه على الجامعة، وهكذا صار نكروما البطل رقم واحد فى غانا بعد أن دار الزمن دورة كاملة ليعيده إلى هذا الوضع.

* * *

سيكوتورى الثائر الهادئ

إذا كان يوجد فى عالم اليوم من يمكن أن يطلق عليه لقب الزعيم الأسطورة، فهو ذلك الثائر الهادئ «أحمد سيكوتورى»[1] محرر غينيا، وأول رئيس لها بعد الاستقلال.

و «سيكوتورى» لم يكن فقط الزعيم الذى قاد مسيرة التحرر لبلاده غينيا منذ الأربعينيات، ولا فقط الرئيس الذى ظل يقاوم المستعمرين كالصخرة الثابتة قبل الاستقلال وبعده، بل كان البطل المدافع دائمًا عن كل الشعوب المضطهدة.

فى مارس عام ١٩٨٤م سكن قلب هذا الزعيم الإفريقى العظيم عن عمر يناهز ٦٢ عامًا إثر نوبة قلبية لم تمهله ساعات، واستراح القلب بعد سنوات طويلة من الكفاح تاركًا وراءه بصمات واضحة على منهج العمل السياسى والدبلوماسى فى حل المشكلات الإقليمية والدولية.

كان «سيكوتورى» من أبرز القادة فى التاريخ السياسى الإفريقى الحديث، وكان واحدًا من زعماء قليلين ممن استمروا فى الحكم حتى النهاية، وظل ٢٦ عامًا يقود بإيمان وصبر مسيرة التحرر لبلاده، ووقف كالصخرة الصامدة يقاوم كل السهام التى صوبت ضده من الداخل والخارج.

---

(١) ولد أحمد سيكوتورى فى يناير، ١٩٢٢م وتعلم فى مدارس غينيا الفرنسية بكوناكرى وعمل بالبريد والاتصالات ثم محاسبًا فى وزارة الخزانة (المالية الفرنسية) وأصبح سكرتيرًا عامًا لنقابة عمال الخزانة. وفى عام ١٩٤٦م ساهم فى تأسيس حركة التجمع الديمقراطى الإفريقى، وفى عام ١٩٥٢م أصبح سكرتيرًا عامًا للحزب الديمقراطى الغينى ورئيسًا للاتحاد العام للعمال الإفريقيين، ثم عين عمدة كوناكرى ومندوب غينيا لدى الجمعية الوطنية الفرنسية عام ١٩٥٦م، ثم أول رئيس لغينيا المستقلة فى أكتوبر ١٩٥٨م.

لم ينحن أمام مستعمريه، ولم يسقط أمام مؤامرات الإطاحة به، ولم يخضع لحملات التشهير به واتهامه بإبادته لخصومه السياسيين، وظل شامخًا لا يلين، حتى بعد أن أنهى عزلته وانفتح على الغرب، فقد رفض العلاقات مع فرنسا حتى أعلن «ميتران» أن فرنسا تحتاج إلى «سيكوتورى» أكثر من احتياج سيكوتورى إليها.

كان وطنيًا متحمسًا، وبرز على المسرح السياسى برفض استفتاء ديجول عام ١٩٥٨م، وأطلق صيحته الشهيرة «لا.. إننا لن نفرط فى حقنا الطبيعى والمشروع فى الاستقلال.. نحن نفضل الفقر مع الحرية على الغنى مع العبودية».

وأحدثت صيحة «سيكوتورى» صداها فى كل أنحاء غرب إفريقيا، وقادت إلى هدم الجماعة الفرنسية التى صممها ديجول، ولم يمض عامان إلا وكانت كل المستعمرات قد طلبت الاستقلال عن فرنسا.

لم يغفر «ديجول» لـ «سيكوتورى» قط هذا الموقف، ورد ديجول بانسحاب كامل وسريع من غينيا بعد أن دمر موظفوه كل الأجهزة، حتى قضبان السكك الحديدية انتزعوها. وتوالت مؤامرات المخابرات الفرنسية للإطاحة بسيكوتورى، وأدى هذا إلى قطع العلاقات بين فرنسا وغينيا عام ١٩٦٥م.

وباعتزاز كبير أغلق «سيكوتورى» أبواب بلده، وظل ما يقرب من ١٥ عامًا لم يغادره يومًا، رفض أضواء الزعامة ومتع الرئاسة، ولبس سرواله الأبيض، وجلس تحت الشجرة مع شباب حزبه وطلائعه يلقنهم حب الوطن والانتماء، ويواصل حياته المتواضعة ليكون قدوة مقنعة لهم.

وظل «سيكوتورى» موصدًا الأبواب حتى أتم بناء حزبه «الحزب الديمقراطى الغينى». وعندما خرج للمشاركة فى المحافل الدولية كان حزبه قد أصبح التجربة الوحيدة الناجحة فى تاريخ نظام الحزب الواحد فى إفريقيا.

حاولت فرنسا استمالته بعد سقوط «ديجول»، ولكن «سيكوتورى» رفض أى تقارب مع فرنسا طوال حكم «بومبيدو»؛ إذ كان يرى فيه ساعد «ديجول» الأيمن ومنفذ سياسته.

وبعد وفاة «بومبيدو» جدد «جيسكار ديستان» المحاولة مع «سيكوتورى»، ولكن «سيكوتورى» طلب مقابلاً لعودة العلاقات الإفراج عن أرصدة غينيا المجمدة فى بنوك فرنسا، وطلبت فرنسا دفع تعويضات المشروعات الفرنسية التى أممتها غينيا، وتوصل الجانبان إلى حل وسط، إذ أفرج عن ٦٠٪ من الأرصدة لصالح غينيا، واستخدم الباقى فى تعويضات الفرنسيين.

وعندما أتى «ميتران» إلى الحكم أدرك أن كل ما مر على «سيكوتورى» على مدى عقدين من الزمان من مؤامرات الانقلاب ومن الضغوط الاقتصادية ومن هجرة الآلاف من مواطنيه ومن عمليات التشهير بانتهاكه حقوق الإنسان كل ذلك لم يجعل «سيكوتورى» يعدل عن سياسته أو يضعف ويلين. فبعث «ميتران» بواحد من صفوة مستشاريه إلى كوناكرى يطلب اللقاء معلنًا أن خصومة حزبه «الحزب الاشتراكى» ضد «سيكوتورى» لم تعد قائمة، وهى الخصومة التى قادها الحزب منذ السبعينيات.

ودعا «سيكوتورى» إلى زيارة فرنسا، ولأول مرة بعد ٢٤ عامًا وطئت قدم «سيكوتورى» أرض فرنسا، واستقبل فيها بحفاوة لم يشهدها زعيم إفريقى من قبل، حفاوة أثارت تساؤلات حول: ما الذى جعل ميتران زعيم الحزب الاشتراكى يبدى كل هذا الحرص على مهادنة «سيكوتورى»؟

وكانت الأسباب ببساطة أن «ميتران» أدرك بحسه السياسى الوجود المتنامى لـ«سيكوتورى» فى إفريقيا، فقد كان الزعيم الغينى واحداً من الآباء المؤسسين لمنظمة الوحدة الإفريقية، وكان قطب لجنة الحكماء التى شكلت فى السبعينيات لمحاولة حل القضايا والمشاكل الإفريقية بالطرق السلمية وفى الإطار الإفريقى. وكان أحد الزعماء الذين وقفوا بضراوة ضد قيام دولة الصحراء، وقاوم بشدة كلاّ من ليبيا والجزائر فى هذا الموضوع، وكان صوته جهيراً فى إدانة الوجود الليبى فى تشاد. وكان له تأثيره الكبير فى وقف جارته «سيراليون» من المشاركة فى تجمع طرابلس عام ١٩٨٣م فى وقت كان انعقاد مؤتمر القمة يتوقف على صوت واحد.

* * *

إن «سيكوتورى» ليس زعيمًا قاد مسيرة التحرر لبلاده غينيا منذ الأربعينيات فحسب، أو ليس فقط رئيسًا ظل يقاوم المستعمرين كالصخرة الثابتة قبل الاستقلال وبعده، بل هو أيضًا بطل للشعوب المضطهدة.

فى أثناء الحرب العالمية الثانية، وعدت الدول الاستعمارية الكبرى مستعمراتها بالاستقلال شريطة مساعدتها فى الحرب. ومع أن هذا الوعد ضمن للدول الاستعمارية ـ ومنها فرنسا ـ انضمام الجنود الإفريقيين إلى الحرب معهم بشكل جماعى مؤمنين بأن تحرير أوروبا من الاحتلال الفاشى سيتحقق معه فى اللحظة نفسها تحرير المستعمرات. إلا أنه بعد انتهاء الحرب لم تحترم الدول الاستعمارية وعودها بإعطاء المستعمرات حرياتها. فلما تكشفت خداع الاستعمار أخذت إفريقيا تنظم صفوفها فى حزم وثقة من أجل انتزاع حريتها بيديها، أدركت الدول الاستعمارية ـ وبخاصة فرنسا ـ مدى الخطر الذى يهدد قواعد الاستغلال الاستعمارى. فاحتالت لوضع سياسة امتصاص تقوم على الاعتراف التدريجى للشعوب المستعمرة بحرياتها على أن يظلوا داخل الكيان الاستعمارى. وعرضت استفتاء ـ وهو ما عرف بمشروع ديجول ـ تختار فيه المستعمرات بين الاستقلال الفورى وقبول البقاء ضمن إطار المجموعة الفرنسية.

وكما سبق القول، عندما عرض الاستفتاء كانت غينيا الدولة الوحيدة التى قالت لا. وتفردت عن بقية المستعمرات، وعارضت بشدة الاستفتاء، وفضلت الانفصال عن المجموعة الفرنسية، ونالت استقلالها عام ١٩٥٨م.

وجدت غينيا نفسها فى وضع فريد بالنسبة لدول غرب ووسط إفريقيا الناطقة بالفرنسية. وسجلت هذه الفترة عمليات استفزاز ضد غينيا، وشنت عليها حملة تشويه ضارية كانت تستهدف إقناع العالم بوجوب رفض النظام الوليد فى غينيا، وضرب الحصار حوله. وادعت الدول الكبرى المعادية أن غينيا وقعت تحت سيطرة حاكم فرد طاغية.

ولم يكن أمام الرئيس «سيكوتورى» إلا أحد أمرين: إما أن يغلق الباب على نفسه وعلى بلده، ويتفرغ لبناء حزبه (الذى أسس منذ عام ١٩٤٧م) وإعداد شعبه لمواصلة مسيرة الاستقلال. وإما أن يغرق فى جدل الدفاع عن نفسه.

وفضل «سيكوتورى» غلق الأبواب، وظل ما يقرب من خمسة عشر عامًا لم يغادر بلده يومًا.

لقد آمن بأن أكثر ما يعرض المستقبل للخطر هو الشك الذى يستولى على الجماهير تجاه قيادتهم، وقدرة هذه القيادة على الوفاء بوعودها، فظل يواصل حياته المتواضعة ليكون قدوة مقنعة لهم.

وظل «سيكوتورى» موصداً الباب عليه حتى أتم بناء حزبه الحزب الديمقراطى الغينى، وعندما خرج للمشاركة فى المحافل الدولية كان حزبه قد أصبح التجربة الوحيدة الناجحة فى تاريخ نظام الحزب الواحد فى إفريقيا.

حاول «سيكوتورى» منذ الاستقلال أن يصحح أوضاع غينيا الاقتصادية بالاستغلال السريع لثروتها المعدنية فى المناجم، ولكن الديون بدأت تطغى على نفقات الأدوات والمهمات المطلوبة لاستغلالها، وبدأت الديون تزداد وتبتلع الناتج القومى. وتدهورت الأوضاع بسبب عزوف المستثمرين الأجانب عنها، وانهيار أسعار المواد الأولية، وعبء الخدمات العامة.

فى البداية تحول «سيكوتورى» إلى الكتلة الشرقية التماساً للمساعدة، وأقام علاقات وثيقة مع الاتحاد السوفييتى الذى احتكر البوكسيت (غينيا تحوز على ثلثى الاحتياطى العالمى منه) وكان إنتاج البوكسيت كله يشحن إلى الاتحاد السوفييتى بأسعار أقل من السعر العالمى كنوع من الوفاء العينى للديون، ولكن «سيكوتورى» لم يحصل على عون حقيقى فتبددت أحلامه عن أصدقائه الماركسيين، وأمام هذه الضغوط تبنى سياسة عدم الانحياز فى العلاقات الخارجية، وأقام علاقات غربية وعربية، وعمل على جذب المساعدات الخارجية لتطوير مصادر ثروة البلاد.

ولكن حتى فى ظل سنوات الانغلاق. وفى أحلك أزمات الحصار الذى فرض على غينيا لم يتخل الثائر «سيكوتورى» عن مناصرة حركات الاستقلال، وفتح بلاده لها وقدم مساعداته ـ التى كان أحوج ما يكون إليها ـ إلى جارته «غينيا بيساو» التى كانت تقود نضالها ضد المستعمر البرتغالى.

وألجأ هذا الموقف الاستعماريين البرتغاليين ـ تساندهم فرنسا ـ إلى شن عدوان مسلح على غينيا عام ١٩٧٠م، ولكن فشل الغزو، وانكشف للعالم دور الإمبريالية والاستعمار. ويذكر أنه منذ عام ١٩٦٠م وعلى مدى عشرين عاماً حاولت المخابرات الفرنسية الإطاحة بحكم «سيكوتورى»، وهذه المؤامرات هى: عام ١٩٦٠م مؤامرة سميت بالقوى الرجعية، سنة ١٩٦١م مؤامرة المدرسين، ١٩٦٣م مؤامرة صفاء التجار، سنة ١٩٦٥م مؤامرة كبار رجال الأعمال، ١٩٦٦م مؤامرة الكوادر الفنيين، ١٩٦٨م مؤامرة العسكريين التى اشترك فيها وزير الدفاع ونائب قائد الجيش، والمؤامرة

الكبرى عام ١٩٧٤م تعرضت فيها غينيا لغزو من الخارج من خصوم النظام، ثم تلا ذلك مؤامرة الطابور الخامس فى عام ١٩٧٦م التى تزعمها ديالللوتيلى الذى أعدم فى المعتقل. وديالللوتيلى هو أول أمين عام لمنظمة الوحدة الإفريقية وكان زعيمًا شعبيًا، وشغل منصب وزير العدل، وكان مقربًا من «سيكوتورى» وسفيراً لبلاده فى الأمم المتحدة، ثم اتهم بالاشتراك فى محاولة قلب نظام الحكم، واعتقل، وأذيع أنه مات فى السجن، ولكن شهود عيان قالوا إنه أعدم.

وهذا الحادث من أهم الأحداث التى زلزلت سمعة «سيكوتورى» وانطلقت أبواق الدعاية المضادة تصفه بالطاغية الحاكم الفرد الذى يخضع بلاده بالاضطهاد والإرهاب. الحقيقة أن ذلك كان جرحًا فى جبين «سيكوتورى».

* * *

من اللمحات المشرفه التى تذكر لـ «سيكوتورى» استضافته للرئيس الغانى نكروما بعد الإطاحة به، ولم يكتف بذلك، بل منحه سلطات رئيس الدولة والحزب حتى يتمكن عمليًا من قمع الثورة المضادة التى تقصف بقوى الثورة التحريرية المناضلة ضد الاستعمار.

فقد أثبت الرئيس «سيكوتورى» بذلك أن الشعوب الإفريقية المتخلفة أكثر تحضراً وفهمًا لواقعها وقضية مصيرها من كثير من الدول الكبرى ذات الحضارة العريقة التى تعبئ كل تقدمها لسحق حركات التحرر للشعوب.

وقد استقبل العالم قرار «سيكوتورى» كحادث شاذ لم يسبق له شواهد فى التاريخ، ولكن سيكوتورى لم يجد فى ذلك غرابة، بل وجده واجبًا قوميًا وامتدادًا لتقاليد أجداده قبائل الفولا القدماء عندما كان زعيم القبيلة يحكم على نفسه بالموت إذا وهنت قوته حتى لا يحل ضعفه فى قوة القبيلة. . هذا الخلق الإفريقى الذى يربط بين الماضى والحاضر لا يختلف إلا باختلاف طبيعة العصر. فالبذل والفداء هما السمة الرئيسية فى التقاليد الإفريقية، وهذا يفسر موقف سيكوتورى، فما أقدم عليه ليس مناورة سياسية كما وصفها البعض، وإنما هى عقيدة تنبع من تراثه الإفريقى القديم، وإيمان منه بأن الحرية وحدة لا تتجزأ، فهو لا يتصور أن يشعر شعب غينيا بالحرية إلا إذا تحررت إفريقيا. . وهو فى ذلك يقول: «إننا نعلم أن غينيا ستظل تشعر بالتهديد ما دامت إفريقيا

ليست حرة كلها . . لنفكر فى الرجل الذى جرح أصبعه، فالأصبع وحدها لا تشعر بالألم، وإنما كل جسد الرجل» .

أفكار سيكوتورى (صيحة التحرر)

كان سيكوتورى نموذجًا من الزعماء الذين يمتازون بالوضوح الفكرى، فلم يكن يؤمن بالأسلوب الميكيافيلى كوسيلة لبلوغ الهدف، وإنما كان يتخذ قراراته بإيجابية وصدق، ويبدأ معارك شريفة من أجلها .

بدأ اسمه يلمع على المسرح السياسى الدولى عام ١٩٥٨م عندما وقف ومعه شعب غينيا يتحدى فرنسا ويرفض الاستقلال داخل المجموعة الفرنسية . ولم يكن هذا التحدى من جانب سيكوتورى بالأمر السهل، بل كان بداية الكفاح الحقيقى، فقد واجه ضغوطًا استعمارية فريدة من نوعها . وكما رفض سيكوتورى النظام الاستعمارى رفض كذلك سياسة التبعية والانحياز، وأعلن أن مستقبل إفريقيا سيكون أولاً وقبل كل شىء طبقًا لإرادة الإفريقيين ولمشيئة أبنائها وحدهم، وأن موقفهم تجاه النظامين الرأسمالى والشيوعى سيتحدد بمدى مساهمتهما لشعوب القارة الإفريقية لتتمكن من تحطيم الأغلال التى تطوقها، وتتحرر من الاستعمار ومن البؤس الاجتماعى والتخلف الاقتصادى .

الأصالة الإفريقية

كان سيكوتورى من الزعماء الإفريقيين الذين شغلهم إيجاد وحدة فكرية تربط بين إفريقيا القديمة بتقاليدها الموروثة، وإفريقيا المعاصرة بحضارتها الوافدة، ولكنه فى الوقت ذاته رفض مبدأ الاندماج الذى دعت إليه فرنسا؛ لأنه رأى فى الحضارة الإفريقية الأصيلة والحضارة الغربية شخصيتين مختلفتين تمامًا، وأن أية محاولة لإيجاد مجتمع مصطنع التركيب عن طريق المزج بينهما ليست سوى محاولة تتعارض مع الواقع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والثقافى، وهو يقول: «إنه لسخف كبير من جانب أولئك الزعماء الإفريقيين المندفعين وراء أوهام وفردوس الاندماج التى لا يمكن أن يصلوا إليه بأفكار واقعهم العنصرى الخاص، ونحن لا نقصد بالواقع العنصرى مجرد

الصفات البيولوچية، ولكننا نقصد الفروق الأساسية التى هى أكثر أهمية، والتى لا يمكن أن تنصهر فى البوتقة الأوروپية الإفريقية التى يحلم بها هؤلاء الساسة. . لقد حطم الاستعمار شخصيتنا القومية إلى حد جعل بعضنا ينظر بعين الازدراء إلى قيمنا وتراثنا وتقاليدنا الأصيلة، وصور إنسانيتنا بأنها مظهر لحياة همجية بدائية لكى يخلق فينا العقد التى تؤدى بنا إلى اختيار أسلوب الفرنسة. . لذلك يجب أن نسعى بجهودنا المتواصلة لإيجاد طريقنا الخاص للتفكير والتطور والازدهار إذا أردنا أن يتم تطورنا دون مساس بشخصيتنا الإفريقية، إن أيسر طريق لحل مشاكلنا هو الذى ينبع من واقعنا الإفريقى. . وكلما كانت هذه الحلول صادرة من صميم طبيعتها وتصورها النظرى وهدفها العلمى كان حل المشكلات أسهل وأبسط. لأن الذين يشتركون فى وضعها لن يكونوا ضائعين فى متاهات التفكير النظرى المجرد البعيد عن واقعهم وظروفهم الخاصة، هكذا يجب أن تعبر صفاتنا المميزة عن إبداعنا الأصيل فى التفكير والعمل، فإن أكثر القوانين ثورية ستظل بلا تطبيق إذا لم يفهمها الشعب، وإذا كانت اتجاهاته وعاداته تتعارض معها».

وبالرغم من دعوته للعودة إلى الجذور الفكرية الأصيلة لماضى إفريقيا فهو يرفض بشدة تلك العادات والأساليب القديمة التى تعوق تقدم إفريقيا أو تقيده، فهو يرفض مثلاً ديمقراطية العشيرة أو القبيلة التى تقصر الرأى على أكبر المتقدمين سنّا.

كذلك ينادى سيكوتورى بتحرر الفرد من كافة القيود الاجتماعية القديمة التى تعوق مسيرة التطور الحتمى للمجتمع، فهو يرى أن الإكراه والضغط يقللان من إمكانية تطوير الشخصية، كما يقللان من إمكانيات تطور المجتمع.

تصفية المتناقضات

على أن أهم معارك التحدى التى خاضعها سيكوتورى هى تصفية المجتمع الغينى من التناقضات المركبة القائمة بين مصالح الشعب من ناحية، ومصالح النظام الاستعمارى من ناحية أخرى، وبين قطاعات المجتمع نفسه.

فقد كانت هناك تناقضات داخلية بين طبقات الشعب تتمثل فى المجتمع الزراعى الذى يشكل ٨٠٪ من أهالى غينيا، فقد انقلب الزراع على الإقطاع الذى خلفه وعضده

النظام الاستعمارى بعد أن انتفى النظام الإقطاعى القديم القائم على أن الأرض هى الملك الأساسى والطبيعى للقبيلة.

وهناك تناقضات فكرية بين صفوة المثقفين الذين تأثروا بالثقافة الفرنسية، وأصبحوا غرباء كلية عن حياة الأغلبية الساحقة للشعب.

وهناك تناقضات فى المجال الاقتصادى.. كالتناقضات القائمة فى جميع الأنظمة الاستعمارية والإمبريالية الخاصة بنظم الاستيراد والتصدير ومضاربات الأرباح.

وهناك تناقضات أيضًا فى النظام العسكرى بين الجندى الفرنسى والجندى الإفريقى، وبين الإفريقيين أنفسهم.

هكذا واجه سيكوتورى ـ كما قال ـ صراعًا مزدوجًا.. صراع خارجى يتمثل فى الضغط الاستعمارى، وصراع داخلى لتصفية هذه التناقضات الاجتماعية، وقد استطاع أن يعبر هذه المرحلة بثبات وحكمة.

فمنذ اللحظة التى استولى فيها على الحكم بدأ بإخضاع الأساليب والأنظمة والأهالى للمقتضيات الجديدة للحياة القومية الحرة مستعينًا فى ذلك بحزبه الذى صهر فيه كل القوى الشعبية.

فلسفة الحزب

إن من أبرز أفكار سيكوتورى فى التنظيم السياسى والتكوين الحزبى أنه لا يؤمن بتعدد الأحزاب، وإنما بنظام حزب واحد يكون بمثابة حركة قومية شاملة تضم كل جماهير الشعب.

والأحزاب فى نظره أنواع ثلاثة.. أحزاب تعيش على أمجاد الماضى، وأحزاب تعيش فى الحاضر فقط، وأحزاب تخطط للمستقبل ولا تغفل فى الوقت ذاته أحداث الماضى، وتراقب اتجاهات الحاضر.

وحزبه «الحزب الديمقراطى الغينى» من النوع الثالث، وهو يؤكد أنه يختلف تمامًا عن الحركات التى عرفتها غينيا، وذلك أنه يقوم على أسلوب علمى، عماده تحليل

المواقف التى تثار، وتحليل أهدافها وأسبابها؛ لذلك فالحزب يعتمد على المثقفين الذين يكرسون ذكاءهم لخدمة الجماهير.

وأهم مبدأ يرتكز عليه الحزب الديمقراطى الغينى مبدأ النقد والنقد الذاتى، وأن يحدد ما هو الصواب وما هو الخطأ.. حتى لا يكون من الصعب مقاومة أعداء الحزب الذين يستخدمونه وسيلة لتحقيق أهدافهم.

وعندما كان سيكوتورى يقول هذا الكلام كان يدرك تمامًا أن نظام الحزب الواحد أحيانًا ما يحمل داخله تناقضات فكرية؛ لذلك فهو يدعو جميع أفراده على كافة مستوياتهم أن يكونوا على أقصى درجة من اليقظة والثبات والقوة ليقضوا على المحاولات التى تعوق عمل الحزب ونشاطه.

الديكتاتورية الديمقراطية

لـ «سيكوتورى» فلسفة خاصة تسمى الديكتاتورية الديمقراطية، فهو يقول إنه لا بد للحكومة الديمقراطية من سلطة ديكتاتورية لتنفيذ برامجها، فإذا كانت الديكتاتورية التى تزاولها الحكومة تنبثق من إرادة الشعب بأسره، فإن الديكتاتورية تكون ذات طبيعة شعبية، وتكون الدولة ديمقراطية وديمقراطيتها يمارسها شعب يتمتع بالسيادة القومية.

فالدولة الديمقراطية هى التى تقوم على إرادة الشعب ولتحقيق مصالح الشعب، وبالتالى تستمد قوتها ونفوذها وسلطاتها من الشعب لتصبح بعد ذلك رقيبًا عليه، وبعبارة أخرى تمارس ديكتاتورية تكون قائمة على مصالح ومقتضيات السيادة الشعبية ومبادئها.. فالديكتاتورية الديمقراطية هى تركيز سلطات السيادة الشعبية على مستوى الشعب.

والوحدة الإفريقية فى نظر سيكوتورى هى الأمل المجسد للشعوب الإفريقية، ولكن قيامها يتطلب أن تسبقها الوحدة الشعبية على مستوى الإقليم الواحد. كما تتطلب أيضًا وعيًا جماعيّا وإرادة مشتركة ووعيًا إفريقيّا وإرادة إفريقية، وقد أعلن سيكوتورى مرارًا أن غينيا على استعداد أن تتنازل عن سيادتها لصالح وحدة إفريقيا، وكان سيكوتورى

صادقًا فى ذلك؛ فقد كان قراره منح نكروما سلطات رئيس غينيا ما هو إلا ترجمة عملية لإيمانه بعقيدة الوحدة الإفريقية.

إن سيكوتورى زعيم كبير سيذكره التاريخ، ونحن الذين عشنا شموخ الستينيات وآمال النهوض بالقارة الإفريقية لن ننسى هذا الزعيم الذى قاد حركة «لا» ضد فرنسا والمجموعة الفرنسية، والذى قطع علاقات بلاده مع إسرائيل غداة حرب يونيو ١٩٦٧م من أجل نصرة الحق والشعب العربى، أقام تجربة التسيير الذاتى لبناء وطنه، وكان زعيمًا إفريقيّا مسلمًا يؤمن بشعبه ومستقبله، وبعقيدته.

* * *

كينيث كاوندا.. أسد إفريقيا العجوز

«لقد بذلت أقصى جهدى من أجل زامبيا، وإذا كنت قد أخفقت فليس سبب الإخفاق ـ بأى حال ـ أننى لم أحاول بذل كل ما عندى من جهد من أجل شعب هذه البلاد».

كانت هذه آخر كلمات الرئيس «كاوندا» للجماهير المحتشدة حول مبنى المحكمة العليا فى العاصمة لوزاكا لمشاهدة حفل تنحى كاوندا وتنصيب الرئيس «فردريك تشيلوبا».

وبعد أن هنأ «كاوندا» خصمه المنتصر استطرد قائلاً: «هذه هى أول انتخابات فى زامبيا تجرى فى ظل أحزاب متعددة، وكانت شريفة وسلمية ونظيفة، وهذا فى حد ذاته إنجاز حقيقى يجب أن تفخر به زامبيا» ثم استدار للجماهير وأخذ يلتقط معهم الصور التذكارية.

«وكاوندا» هو أول رئيس إفريقى يقبل بهزيمته ويتنازل عن السلطة طائعًا عن طريق انتخابات حرة دعا هو إليها وحدد وقتها، وبذلك خرج من الحكم بطريقة سلمية تتناسب مع فلسفته الإنسانية الخاصة التى هى مزيج من المسيحية والماركسية، ومن التقاليد والمعتقدات الإفريقية.

وبسقوط «كاوندا» انتهى جيل كامل من الزعماء العظام الذى حملوا لواء التحرير فى الخمسينيات والستينيات، وقادوا شعوبهم إلى الاستقلال، وذلك بعد أن تقاعد «نيريرى» زعيم تانزانيا، ورحل «سيكوتورى» زعيم غينيا، ومن قبلهما «نكروما» فى غانا، و «جوموكينياتا» من كينيا، و«عبد الناصر» من مصر.

وإذا كانت هزيمة «كاوندا» ـ فى أول انتخابات تجرى فى زامبيا فى ظل التعدد الحزبى ـ تعد رفضًا شعبيًا له، فهذا لا يمحو ولا يطمس الدور الكبير الذى قام به هذا المقاتل الإفريقى لتحرير بلده، إذا نظر إليه فى الإطار التاريخى العام.

إن فشل «كاوندا» فى انتخابات الرئاسة، أو فقده شعبيته داخل بلده، أو عدم قدرته على تحقيق الرخاء لشعبه، لا يقلل ذلك كله من دوره التاريخى الكبير، سواء على المستوى المحلى أو الإفريقى.

لقد فتح «كاوندا» أراضى زامبيا لحركات التحرير فى الجنوب الإفريقى، وتحمل من ذلك ردود فعل حكومة جنوب إفريقيا العنصرية التى صيرت زامبيا مرتعًا لاعتداءاتها، وأثقل هذا الصراع كاهل بلاده، وشكّل عبئًا لا يجوز تجاهله عند تقييم تجربة زامبيا فى خلال العقود الماضية.

قد تكون كل تلك الأسباب مما ساهم فى هدم «كاوندا»، وقد يكون تفرد «كاوندا» بالسلطة وعدم مشاركة الجماهير فيها من تلك الأسباب التى ساهمت فى هدم هذا الهرم الكبير. ولكنه مع كل ذلك يذكر له أنه خضع لإرادة شعبه، وسمح بتعدد الأحزاب، وسمح بإجراء استفتاء على رئاسته، وهو الذى حدد موعده، والتزم به، وضرب مثلاً رائعًا فى كيف ينحنى زعيم كبير وكيف يحترم نتائجه، ويعود عضواً عاديًا فى مسيرة شعبه بعد أن ظل يقوم بدور البطولة على المسرح السياسى الإفريقى لأكثر من ٤٠ عامًا.

ولد «كينيث كاوندا» عام ١٩٢٤م، وهو ابن قسيس پروتستانتى بمقاطعة شنسال الشمالية، وكان بلده زامبيا يعرف وقتها باسم روديسيا الشمالية، وتعلم فى مدارس التبشير، وعمل بالتدريس فى الفترة ما بين ١٩٤٣ ـ ١٩٤٧م ثم اشتغل بالخدمة العامة. وبدأ نشاطه السياسى بالانضمام إلى حزب المؤتمر الوطنى الإفريقى عام ١٩٤٨م وانتخب سكرتيراً عامًا للحزب عام ١٩٥٣م، ثم انفصل عنه ليكون حزب مؤتمر زامبيا الإفريقى عام ١٩٥٨م. وبعد ذلك بعام فرضت الحكومة العنصرية حظراً على نشاط الحزب، كما فرضت قيوداً على إقامة كاوندا. وعند الإفراج عنه فى العام التالى انتخب رئيسًا لحزب الاستقلال الوطنى المتحد. وبعد انتخابات عام ١٩٦٢م أصبح وزيراً فى أول حكوكة إفريقية، وبعدها بعامين فاز فوزاً ساحقًا فى الانتخابات، وأصبح أول

رئيس للوزراء فى البلاد، وبعدها بشهور قلائل أصبح رئيسًا للجمهورية، وظل رئيسًا حتى نوفمبر ١٩٩١م.

أصبحت زامبيا بقيادة «كاوندا» تعرف فى القارة الإفريقية بأنها واحة سلام تسود فيها حرية داخلية إلى حد ما. وحول «كاوندا» اسمها من روديسيا الشمالية إلى زامبيا الاسم الإفريقى، ليذكر شعبه ويذكر العالم بشخصيتها. واتسمت فترة حكمه بأنها كانت هادئة، فلم تشهد زامبيا أى نزاعات فيها قبلية أو إقليمية.

وقد أسهم «كاوندا» بقدر كبير فى تشكيل المواقف الإفريقية فى المجال الدولى، ورأس منظمة الوحدة الإفريقية عام ١٩٧٠م، وصار زعيمًا لدول المواجهة، أى مجموعة الدول الإفريقية المجاورة لجنوب إفريقيا، وتشمل زامبيا وزيمبابوى وبوتسوانا وأنجولا وموزمبيق وتانزانيا.

فى الستينيات وبداية السبعينيات عرف كاوندا بتشدده تجاه جنوب إفريقيا، وهدد أكثر من مرة بالانسحاب من الكومنويلث البريطانى بسبب الدعم المستمر الذى كانت تقدمه بريطانيا والولايات المتحدة ودول غربية أخرى لحكومة الأقلية البيضاء فى روديسيا الجنوبية (زيمبابوى حاليًا) وحكومة بريتوريا العنصرية فى جنوب إفريقيا. وطالب بفرض عقوبات اقتصادية ضد جنوب إفريقيا رغم صلات زامبيا البالغة التعقيد بجنوب إفريقيا؛ إذ تعتمد زامبيا ـ وهى الدولة القارية ـ على طرق جنوب إفريقيا وسكك حديدها وموانيها لتصدير معادنها ومنتجاتها. وقام بدور هام فى تأييد الوطنيين فى كلٍّ من زيمبابوى وموزمبيق حتى حصلتا على استقلالها. ولعل هذه السياسة التحررية التى آمن بها كانت المعول الأساسى فى محاصرة نظامه والسعى لتقويضه.

قبض كاوندا على السلطة عام ١٩٦٤م، وفى عام ١٩٧٥م أعلن نظام الحزب الواحد. وظل يحكم بحزب الاستقلال الوطنى المتحد حتى ديسمبر ١٩٩٠م، وعندما خضع لمطلب الجماهير وعدل الدستور، وسمح بتعدد الأحزاب، وألغى حالة الطوارىء، وحدد موعدًا لإجراء الانتخابات الحزبية التى جرت فى أكتوبر ١٩٩١م، ووافق على أن تعطى الدولة معونات مالية لكل الأحزاب لخوض الحملة الانتخابية على أساس المساواة فى الإمكانيات. وعندما سئل حينذاك عما إذا كان سيقبل بإقصاء حزبه عن الحكم إذا جاءت نتائج الانتخابات فى غير صالحه أجاب بحزم «إننى ديمقراطى،

وإذا قرر شعب زامبيا أن حزبى لم يعد الحزب الذى يريد أن يقوده، فسيكون هذا قرارهم وسنقبله وننصاع له».

وهذا ما حدث بالضبط، فقد قبل «كاوندا» بهزيمته، ووصف الانتخابات التى تمت تحت إشراف ما يزيد عن ألفى مراقب محلى وأجنبى من بينهم الرئيس الأمريكى السابق «جيمى كارتر» وفريقه الدولى، وصف «كاوندا» الانتخابات بأنها كانت نقطة تحول فى التطور السياسى لزامبيا، وأنها كانت سلمية ومنظمة، وهنأ منافسه فردريك تشيلوبا. ورد تشيلوبا.. إن «كاوندا» هو الأب المؤسس لأمتنا، ويجب أن يبقى فى قلوبنا.. إنه هو الذى قاد البلاد نحو الاستقلال، وسيظل على رأس حزبه وزعيمًا للمعارضة».

ولكن هذه الكلمات المعسولة سرعان ما لحسها الرئيس تشيلوبا وانقلب على «كاوندا» وألقى القبض عليه، ولم يشفع لكاوندا سنه الكبير البالغ ٧٣ عامًا، ولا ماضيه الوطنى المضىء، وزج به فى السجن دون أن توضح السلطات سبب اعتقاله.

وفى السجن أضرب كاوندا عن الطعام حتى تعلن السلطات عن سبب اعتقاله، ومثل أمام المحكمة العليا فى لوزاكا، ولكن القاضى لم يجرؤ أن يوجه له أى اتهام، وقيل إن سبب الاعتقال مرتبط بمحاولة انقلابية فاشلة قام بها ضابط صغير فى جيش زامبيا استولى على محطة الإذاعة وأعلن الإطاحة بالرئيس فردريك تشيلوبا وبسياسته التى وصفها بأنها مدمرة لزامبيا. ولكن فشل الانقلاب وقبض على قياداته، وكان «كاوندا» وقت حدوثه خارج البلاد فى زيارة لزيمبابوى، حيث كان يزور أبناءه الذين التجؤوا إليها هربًا من المعاملة السيئة التى يلاقونها فى زامبيا.

واعتقال «كاوندا» لم يكن أول حادث يتعرض له من قبل السلطات الزامبية، فقد تعرض لمحاولتين فاشلتين لاغتياله: **الأولى** أطلق الرصاص على سيارته فأصابت إطاراتها، **والثانية** عندما كان فى طريقه لحضور اجتماع جماهيرى لحزبه فحاصرت الشرطة المكان، وألقت قنابل مسيلة للدموع وأحرقت المنصة، وأطلقت الرصاص على سيارة «كاوندا» فأصابته بجرح فى جبينه، وعندما وصل إلى المستشفى قطع التيار الكهربى عن المستشفى ليتأخر إسعافه.

وصف «كاوندا» حادث اغتياله بأنه من أفاعيل أناس مهرة يحترفون القتل ويصوبون بدقة كما حدث مع جون كنيدى رئيس الولايات المتحدة فى دالاس عام ١٩٦٢م، وأن

هؤلاء من أعضاء التنظيم الحكومى الذين جندهم تشيلوبا وأعدهم للضرب وإلقاء الغاز فى وجوه الجماهير، ونفى الرئيس تشيلوبا ادعاء كاوندا، وقال: «إن كاوندا رجل دولة كبير ومحترم ومحبوب ولا يوجد سبب للتخلص منه، ونحن ندين له بأشياء كثيرة، لقد كان أول رئيس لدولتنا وله مكانة فى تاريخنا»، ولكنه استطرد محذرًا «إن على الذين يطالبون بحرية الاجتماع عليهم أن يتقبلوا حرية الاعتقال».

كان السبب المباشر فى إساءة العلاقات بين كاوندا وتشيلوبا إلى هذا الحد المتدنى هو عزم كاوندا ترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة التى جرت فى أكتوبر ١٩٩٦م (وهى الانتخابات الثانية للبلاد. وقد منعته السلطات من خوضها بدعوى أن «كاوندا» ليس زامبى الجنسية، وإنما هو من أصل مالاوى، ورد أنصار كاوندا بأن هذا هراء، وأن تشيلوبا هو الذى ليس مواطنًا زامبيًا، وإنما هو زائيرى الجنسية، ورفعوا دعوى أمام المحكمة العليا الزامبية للطعن فى صلاحية انتخاب تشيلوبا.

وهكذا اشتعلت الحرب بين الخصمين، وأصبح شغل السلطات الزامبية مراقبة «كاوندا» ورصد تحركاته ومقابلاته واتصالاته، وبات من المألوف إلقاء القبض عليه ثم الإفراج عنه، مرة بحجة عقد مؤتمر سياسى دون أن يخطر السلطات أو بزعم أنه سافر بدون إذن، أو أن أحد أفراد أسرته قاد سيارته بسرعة غير مسموح بها. وهكذا ظل كاوندا يواجه بسيل من تهم واهية هدفها تشويه سمعته وتجميد حركته وشغله بالمشاكل الصغيرة، وبقى كذلك حتى وهنت صحته وشل نشاطه، وانتهى هذا المناضل الإفريقى الصلب قائد حركة تحرير زامبيا الذى فتح أراضيه لحركات التحرير فى الجنوب الإفريقى وتحمل من جراء هذا ردود أفعال حكومات الجنوب العنصرية، وأثقل هذا كاهله، وشكل عبئًا لا يمكن تجاهله أو نسيانه عند تقييم هذا القائد الإفريقى العظيم.

* * *

فـرح عيـديد
أميـر حـرب أم زعيـم وطنـى؟

«إن الموت أحيانًا يفسح الطريق للسلام» هذا ما قاله أحد مسئولى الأمم المتحدة تعليقًا على وفاة الزعيم الصومالى «محمد فرح عيديد».

كذلك قابلت الولايات المتحدة نبأ وفاة عيديد بنوع من الارتياح، وقال نيكولاس بيرنز المتحدث باسم الخارجية الأمريكية: «لا ريب فى أن غياب عيديد عن الساحة سيساعد على استتباب السلام والأمن فى الصومال ووضع حد للنزاع هناك».

وفرح عيديد يصنف العدو رقم واحد للولايات المتحدة؛ فهو الذى ألحق بأمريكا أكبر هزيمة بعد فيتنام وأجبرها على مغادرة الصومال عام ١٩٩٤م، وتكللت مهمتهم بفشل مهين، مما دعا الولايات المتحدة رصد مكافأة مالية بعشرات الآلاف من الدولارات لمن يقبض عليه حيّا أو ميتًا، ومع ذلك لا جبروت القوات المسلحة الأمريكية ولا إغراء المال الوفير جعل صوماليّا واحدًا يرشد عن مكان عيديد، وأدت هزيمة الولايات المتحدة ـ التى انفردت بزعامة العالم بعد انهيار الاتحاد السوفييتى ـ أن تتفادى الخوض فى صراعات أخرى فى العالم.

فمن هو هذا الرجل الذى حماه شعبه؟ هل هو أمير حرب كما يصفه الغرب، أشعل نيران الحرب فى الصومال وهدد سلامتها وأمن شعبها، أم كان زعيمًا وطنيّا ظهر فى غير عصره، هل هو بطل قومى أم مجرد مجرم حرب، هل هو محرر الصومال أم مجرد رجل متعطش للسلطة، زعيم وطنى أم رئيس قبيلة، قيادة أسطورية أم شخصية دموية كريهة؟

أيّا من كان فقد حملته واشنطن والأمم المتحدة مسئولية دمار الصومال وأزمته الراهنة، وسعت لإلقاء القبض عليه ومحاكمته كمجرم حرب ارتكب جرائم ضد الإنسانية، ولكنهم فشلوا فى الإيقاع به رغم المكافأة السخية التى رصدوها لمن يرشد عنه.

ولفظ عيديد فى اللغة الصومالية يعنى شديد البأس، أو صعب المراس.. وربما تنطبق هذه الأوصاف على حامل الاسم؛ فهو رجل عسكرى من قبيلة الهوية، شغل منصب سفير الصومال فى الهند لسبع سنوات فى عهد الرئيس المخلوع «سياد برى»، وكان رجلاً طموحًا متمدينًا مغرمًا بالآداب، ويقرض الشعر، ويتكلم خمس لغات منها الإنجليزية والإيطالية والروسية، ويستطيع أن يخاطب الجماهير عدة ساعات فيستحوذ على عقولهم ويلهب أفئدتهم، ويقنع من يستمع إليه حتى ولو كان من المعارضين له.

هذا الرجل كان يمكن أن يكون رئيسًا للصومال إذا اغتنم الفرصة بعد سقوط «سياد برى» وظل فى العاصمة مقديشيو؛ ذلك لأنه هو القائد الذى أطاح بالديكتاتور السابق. وبعد هزيمة برى فى يناير ١٩٩١م وهروبه إلى كينيا مصطحبًا معه كل احتياطى الذهب الخاص بالدولة ارتكب عيديد خطأه الكبير، وبدلاً من أن يدخل مقديشيو ويدعم وضعه فيها فضل مطاردة «برى» إلى خارج البلاد، فمكن ذلك حليفه وقتها ومنافسه بعد ذلك على مهدى محمد من السيطرة على العاصمة.

ومنذ ذلك الوقت ظل الاقتتال دائرًا بين الرجلين للسيطرة على السلطة، اعتمد عيديد على زعامته والتأييد الشعبى له، واستند مهدى على القوى الأجنبية الخارجية التى تحولت أغلبها من قوات تدخلت لإنقاذ الصومال إلى قوات مقاتلة تقتل وتفتك بشعب أعزل بائس. وهكذا تحول عيديد من مقاتل من أجل السلطة إلى مقاوم ومناضل من أجل استقلال بلاده وطرد القوات الأجنبية من أراضيها.

وهكذا وجد عيديد نفسه يقود الحرب الرابعة فى تاريخ الصومال بعد الاستقلال. وكانت هذه الحروب جميعًا من أجل التحرر وجمع شمل البلاد ووحدتها.. فالصومال اقتسمته القوى الاستعمارية وصار خمسة أجزاء، وتوزعت بين إيطاليا وإنجلترا وفرنسا وأثيوبيا. كانت الحرب الأولى ضد أثيوبيا وشنت فى أعوام ١٩٦٠، ١٩٦٤، ١٩٧٧م وكانت فى إطار إستراتيجية عامة تهدف إلى جمع شمل أجزاء

الصومال الخمسة فى دولة واحدة. وبعدها فشل الصوماليون فى إعادة توحيد أجزاء بلادهم. اندلعت الحرب الثانية ضد «سياد برى» بعدما وقع اتفاق سلام مع أثيوبيا عام ١٩٨٨م، تنازل بموجبه رسميّا عن مطالبة الصومال بإقليم أوجادين أحد الأقسام الخمسة. وكانت الحرب الثالثة بعد سقوط نظام برى وحدوث فراغ سياسي إثر الإطاحة به؛ مما فتح باب الصراعات القبلية المدمرة على مصراعيه، ولم يستطع أىٌّ من الأطراف تحقيق انتصار عسكرى على الآخر، وتداعى ما تبقى من أعمدة الدولة.

أما الحرب الرابعة، فهى التى قادها عيديد ضد الوجود الأجنبى فى الصومال، وتدخل القوات الأمريكية فى حملة إعادة الأمل، ثم قوات الأمم المتحدة فى حملة «يونيصوم ٢»، وأطاحت بالرئيس سياد برى الذى كان يصور بأنه بانى الدولة الحديثة فى الصومال، وبدلاً من أن يوحد بلاده اندلعت المواجهات القبلية العنيفة ضده، وسرعان ما تحولت إلى حرب أهلية ما زالت تزلزل أنحاء الصومال.

الحقيقة أن الرئيس برى لم يسقط فى يناير ١٩٩١م، فقد سقط فعليّا هو ونظامه منذ أن انفجرت الحرب الأهلية فى البلاد فى مايو ١٩٨٨م بعد فشله فى حرب الأوجادين، وأصبحت المشكلة التى تواجه الصومال هى كيفية عودة الوحدة الوطنية للشعب الصومالى وتوحيد جبهات المعارضة لصالح الوحدة الوطنية. بعد أن رجعت عجلة الزمان بالصومال إلى الوراء، وبعد عقدين من حكم الرئيس المخلوع برى أصبح المطلب هو وحدة الشعب الصومالى بدلاً من وحدة التراب الصومالى، وهو الشعار الذى كان أمل الصوماليين عندما قبض «برى» على زمام السلطة فى أكتوبر ١٩٦٩م.

عندما قامت ثورة أكتوبر ١٩٦٩م بزعامة سياد برى، رحب الشعب الصومالى بالانقلاب العسكرى بحماس لينهى مظالم حكم مدنى غير مستقر استمر تسع سنوات منذ نال الصومال استقلاله عام ١٩٦٠م، ورأى فى قائد الانقلاب محمد سياد برى الزعيم الوطنى الذى سيحقق حلمه فى استقرار الأوضاع فى البلاد وتوحيد التراب الصومالى. وكما سبق القول كانت القوى الاستعمارية قد فتتت الصومال إلى خمسة أجزاء، اثنان وقعا فى قبضة بريطانيا، وواحد لفرنسا، وجزء لأثيوبيا، والخامس لإيطاليا. وفى عام ١٩٦٠م استقل جزآن هما الإيطالى وواحد بريطانى، وأقاما جمهورية الصومال. وبقيت معركة تحرير بقية أجزاء الصومال وتوحيده هى الأمل والحلم للشعب الصومالى.

والحقيقة أن محاولة تحقيق هذا الحلم إلى واقع كلف برى الكثير، وكانت طموحاته هذه هى جوهر أزماته، كما كان فشله فى حروب التوحيد أحد العوامل التى بلورت المعارضة ضد نظامه وأطاحت به فى النهاية.

جذور الأزمة

عندما تولى سياد برى السلطة عام ١٩٦٩م وجد نظامين متناقضين هما النظام القبلى التقليدى القائم على الرعى والمقايضة، والنظام الحضرى الذى ارتبط بأجهزة الدولة ومشاريعها وارتبط إنتاجه بالسوق المحلية والعالمية.

لم تعمل الدولة على مزج هذين النمطين فى إطار خطة للتنمية، بل إن تدخلها عبر النمط التقليدى الأول اصطدم بزعماء القبائل فى إطار عمليات تأميم الصادرات والواردات، وأدى ذلك إلى دخول أجهزة الدولة فى معركة مع شيوخ القبائل وأعدم بعضهم، وأضيرت مصالحهم الاقتصادية وأوضاعهم الاجتماعية بفقدانهم تجارتهم للماشية مع أسواق الخليج والسعودية ومصر، وكانت النتيجة هى التماسك القبلى وعزلته عن أجهزة الدولة، والاعتماد على تهريب الماشية وتجارتها مع الدول المجاورة. وبالنسبة للنمط الإنتاجى الثانى المرتبط بأجهزة الدولة، فقد شابه أيضًا خلل فى توزيع برامج وخطط التنمية، تمثل فى إهمال شمال البلاد تنمويًا، فشيدت مشاريع تنموية فى جنوب ووسط الصومال إبان الحركة الإنشائية العمرانية التى قادتها الدولة بمساعدة الاتحاد السوفييتى (سابقًا)، بينما ظل الشمال برغم الجهد الفردى الذى بذله أبناؤه المغتربون، ورغم العلاقات التجارية مع جيبوتى ودول الخليج ظل غاية فى التردى والتخلف مقارنة بالجنوب والوسط، وتزامن مع هذا الخلل فى إدارة وتوزيع مشاريع التنمية مع ما أسماه الشماليون بعمليات تنظيف المناصب العليا فى الإدارة الصومالية والجيش من الشماليين، وترتب على ذلك إثارة النعرات القبلية بين الشمال والجنوب.

ومن ناحية أخرى يمكن القول إن النزاع السياسى الذى أدى إلى الحرب الأهلية فى الصومال لم يكن أصلاً بين العشائر فحسب، بل كان فى جوهره نزاعًا على المصالح بين ثلاث مجموعات اقتصادية فى المجتمع هى: الرحل، والريفيون، والحضر. كما ينبغى التأكيد على أن السياسيين والقادة العسكريين ينتمون إلى الشريحة العليا فى النظام

الاجتماعى التى تشمل فقط السكان. وفى المقابل فإن القيادة التقليدية ـ بالرغم من إضعافها طوال ما يزيد عن ٣٠ سنة من الحكم شبه الحديث وتقويض سلطتها طوال أكثر من عقدين من الديكتاتورية العسكرية ـ لا تزال تتمتع بالنفوذ والاحترام لدى الأغلبية السكانية من الرحل الذين يشكلون ٨٠٪ من السكان.

وبسبب الإحباط لفشل نظام الحكم الحديث المتمثل فى المؤسسات الحكومية والدولة لجأ الصوماليون إلى نظامهم القديم وهو التنظيم القبلى أو العشائرى. ومن جهة أخرى عمل نظام برى على إزكاء الخلافات بين هذه القبائل لتحقيق أهدافه، وبث عدم الثقة بين مختلف العشائر والفصال، وقد أدى هذا الأسلوب إلى خلق نزعة الشك والريبة ليس بين القبائل فحسب بل إزاء أى سلطة مركزية، ويظهر ذلك بوضوح فيما قام به الصوماليون من تدمير كافة رموز الدولة وهياكلها ومؤسساتها فى سباق حربهم ضد نظام برى.

وبالنسبة للوضع الاقتصادى، فقد شهدت فترة الثمانينيات أزمة اقتصادية تعود للأسباب الآتية:

١ ـ حدثت تغيرات ملحوظة فى أسعار تصدير الماشية الصومالية بسبب المنافسة الأسترالية الشديدة على السوق السعودية التى كانت تستوعب ٩٠٪ من الإنتاج الصومالى. وأدى خوف الصومال من فقد هذه السوق إلى تخفيض أسعارها، بالإضافة إلى قلة الإنتاج بسبب انتشار المواجهات المسلحة مع النظام. وترتب على خفض الأسعار وتقليل التصدير انكماش دخل البلاد من العملة الصعبة. كما أثرت حرب الخليج الثانية على استيعاب السوق العربية للإنتاج الصومالى، مما ضاعف من الآثار السلبية للأزمة على دخول الرعاة والمنتجين والتجار.

٢ ـ أثر الجفاف الذى اجتاح شرق إفريقيا ـ وبخاصة القرن الإفريقى ـ على إنتاج الثروة الحيوانية، كما هلكت ثروة الموز الصومالى الذى يمثل نسبة هامة من صادرات البلاد.

٣ ـ لجأت أجهزة الصومال بعد أن فقدت جزءًا هامًا من قدراتها الاقتصادية بسبب الحرب مع أثيوبيا لاستعادة الصومال الغربى إلى الاستدانة من المؤسسات المالية الدولية، فى عام ١٩٧٩م بلغ العجز فى ميزان المدفوعات ٢٢٠ مليون دولار، وارتفع

عام ١٩٨٦م إلى ٣٧١ مليون دولار، بينما وصل عام ١٩٨٨م أكثر من ٣٨٠ مليون دولار. ويعادل هذا الرقم الأخير خمسة أضعاف دخل الصادرات الصومالية. وارتفعت نسبة التضخم فى العام نفسه إلى ١١٠٪ فى بلد لا تكفى كل صادراته لتغطية نصف قيمة خدمة ديونه البالغة ٣ مليارات دولار. وكنتيجة مباشرة لذلك عم البؤس ليصير الدخل السنوى للفرد ٢٨ دولارًا، واستفلحت البطالة، واختفت الخدمات الاجتماعية.

٤ ـ ساهمت الهزيمة العسكرية لنظام برى فى حربه مع أثيوبيا والتى استمرت من سنة ١٩٧٤ حتى ١٩٧٨م، ساهمت فى فقدان النظم الشرعية السياسية. وبالإضافة إلى ما خلفته هذه الحرب من لجوء أكثر من ربع مليون نسمة إلى الشمال الفقير ليزيد من مشاكله مع النظام، فإن قضية الوحدة الصومالية تعرضت لنكسة كبرى بالهزيمة أمام أثيوبيا. ومثلما اشترطت كينيا توقيع اتفاقية للحدود عام ١٩٨١م حاولت أثيوبيا إجبار الصومال على الاعتراف بالحدود القائمة فى اتفاقية أبريل ١٩٨٨م كشرط لتطبيع العلاقات بين البلدين، وقادت تداعيات الهزيمة ونتائجها إلى سيطرة العسكريين على المناصب القيادية فى المحافظات والإدارات الحكومية، وصارت المناصب السياسية العليا فى يد الجنوبيين. وبالذات بين أبناء عائلة برى من قبيلة المريجان الصغيرة، ومثلما تعرضت قضية وحدة التراب الصومالى إلى تلك النكسة، تعرض أيضًا الوفاق الوطنى إلى الانقسام أمام جبروت الحكم الفردى وتطبيقه لسياسة قبلية تقوم على تميز قبيلة واحدة ومنحها امتيازات خاصة وضرب الآخرين، وأدى ذلك إلى تدهور الحالة الأمنية وتزايد الاعتقالات، وولد هذا الاضطهاد السياسى والاجتماعى الذى اتخذ طابعًا عنصريًا وقبليًا انبثاق الحركات المسلحة للتخلص من النظام القائم.

بروز المؤتمر الصومالى الموحد

تشكلت جبهة المؤتمر الصومالى الموحد التى تزعمها فرح عيديد، وكان منافسه (على مهدى محمد أيضًا عضوًا بارزًا فيها) تشكلت عام ١٩٨٩م فى روما من تجمع سياسيين قدامى وضباط سابقين من قبائل الهوس فى وسط البلاد وحول العاصمة مقديشيو ومن الجنود المنسحبين من الجيش الصومالى. وأعلنت قوات المؤتمر بقيادة فرح عيديد الحرب على سياد برى، واستطاعت مع القوى الأخرى (المتمثلة فى ثلاث جماعات رئيسية

مقاتلة هى الحركة الوطنية الصومالية التى تسيطر على الشمال، والجبهة الديمقراطية لإنقاذ الصومال التى تسيطر على الإقليم الشرقى، والجبهة الوطنية لتحرير الصومال التى تسيطر على الإقليم الغربى)، استطاع المؤتمر الصومالى الموحد بهذه القوى وبإرادة الشعب من الإطاحة بالرئيس برى، والسيطرة على العاصمة وطرده منها. ولكن ما إن استولى المؤتمر على السلطة حتى انشق إلى فصيلين: **أحدهما** بزعامة فرح عيديد، **والثانى** بزعامة على مهدى محمد.

فبعد ساعات من الإطاحة بالرئيس برى قامت جماعة من قادة المؤتمر بالسيطرة على راديو مقديشيو، دون موافقة الجنرال عيديد الذى كان يقود المعركة ضد القوات الحكومية. ودون علمه أيضًا، وكذلك دون موافقة اللجنة المركزية للحزب. واستطاعت هذه الجماعة التى تمثل الطبقة الثرية ـ فهم أساسًا من رجال الأعمال والتجار والأغنياء ـ استطاعوا مع تأييد سياسى وعسكرى قليل أن يقبضوا على السلطة، ويعينوا على مهدى محمد رئيسًا للصومال خلفًا لسياد برى. ولم يقبل ذلك الجناح العسكرى الذى يقوده فرح عيديد، ورفض هذا التصرف، وقال إنه لم يؤخذ رأيه فى موضوع تعيين رئيس الجمهورية، وإن سياسة الأمر الواقع هذه لا يقبلها مهما كانت العواقب.

التدخل الأجنبى

دار الاقتتال بين الرجلين، اعتمد عيديد على زعامته والتأييد الشعبى له، واستند «على مهدى محمد» على القوى الأجنبية الخارجية التى تحولت من قوات تدخل لإنقاذ الصومال إلى قوات تقتل وتفتك بشعب أعزل بائس، وتحول عيديد من مقاتل من أجل السلطة إلى مدافع عن استقلال بلاده، ومجاهد لطرد القوات الأجنبية من أراضى الصومال، وهكذا وجد نفسه يقود الحرب ضد الوجود الأجنبى للقوات الأمريكية فى حملتها التى سمتها إعادة الأمل (يونيصوم ١) ثم قوات الأمم المتحدة فى حملتها «يونيصوم ٢».

وقصة الوجود الأجنبى فى الصومال تعود إلى فترة الحرب الباردة عندما كان للاتحاد السوفييتى مواطئ أقدام قوية فى منطقة القرن الإفريقى التى تمثل شرق إفريقيا، وجنوب الجزيرة العربية، ومدخل البحر الأحمر. وكان للاتحاد السوفييتى نفوذ قوى

فى اليمن الجنوبى وفى أثيوبيا (أيام حكم مانجستو) وفى الصومال (سياد برى)، فلما انهار الاتحاد السوفييتى وبدأت الحكومات المعتمدة عليه فى القرن الإفريقى تتساقط الواحدة تلو الأخرى، أرادت الولايات المتحدة أن ترث هذا الميراث، وتدعم نفوذها فى هذه المنطقة الخطيرة. وجاء دور الصومال.

ومن جهة ثانية، فإن حركة جارنج فى جنوب السودان كانت فقدت دعمها الكبير الذى يأتيها من أثيوبيا بسقوط مانجستو، وبدأت حكومة السودان المركزية تسيطر على الجنوب، وتكبد جارنج هزائم هددت بتصفية حركته، ولم يرض هذا السياسة الأمريكية بطبيعة الحال، ونظرت الولايات المتحدة إلى الصومال أن تكون موطئ قدم لها؛ لتمد نفوذها إلى السودان، ولتدعم حركة الجنوب.

بدأت الولايات المتحدة تتحرك بدعم الحروب الأهلية فى الصومال، وشنت حملة دعاية واسعة على الصومال وشعبه بأنه لا يستطيع أن يحكم نفسه بنفسه، ويتردى فى وهاد الجوع والعرى والقتل المتبادل فى حركة أشبه بالانتحار الجماعى، وبدت الولايات المتحدة فى صورة المنقذ المخلص «ميكى ماوس» الذى يرد الشر ويدفع الصومال إلى الحضارة والرخاء.

وتحت شعار إنقاذ الصومال، نزلت القوات الأمريكية أرض الصومال سنة ١٩٩٢م فى عملية سمتها إعادة الأمل، ولكن هذه العملية آلت سريعًا إلى عملية جلب الموت، وما بدا من أنها عملية تهدئة تحولت إلى حرب دامية واسعة النطاق بين القوات الأمريكية الغازية والقوات الوطنية. وبينما كانت الطائرات الأمريكية المروحية تطلق النار على النساء والأطفال الأبرياء كان رجال عيديد يحملون جثث الطيارين الأمريكيين الذين حصدتهم النيران ويجوبون بها الشوارع كنوع من مواكب المذلة لأمريكا، وكان مشهد القتلى الأمريكيين وصورهم عبر شاشات التليفزيون الأمريكى كافية لأن تجبر كلينتون على إعلان سحب القوات الأمريكية من الصومال، وإنهاء عملية إعادة الأمل، بعد أن خشيت أن تصبح الصومال فيتنام أخرى، وسلمت الولايات المتحدة المهمة للأمم المتحدة بأن تقوم بدورها فى إخضاع الصومال، وهو ما عرف بعملية «يونيصوم ٢».

والمؤسف أن الأمم المتحدة عندما استلمت الأمر شجعت فصائل مقاتلة لم تكن موجودة أصلاً أثناء الصراع من أجل الإطاحة ببرى. كما يصعب القول بأن أيّا من هذه الفصائل تمثل أى شخص سوى رؤسائها، واعترفت بهم لإضعاف عيديد والچنرال حسنى، وهما القيادتان الأساسيتان اللتان أطاحتا بديكتاتورية برى.

وتحقيقًا لهذه الغاية أعملت القوات الدولية القتل والتدمير، وحدث الصدام الدامى بينها وبين عيديد. كان الصدام الأول عندما نسفت القوات الدولية مقر عيديد ومركز قواته، وقتل فى هذا الاشتباك ١٤ صوماليّا. ولكن عيديد أفلت ونجا من هذه الغارة. ثم أصدرت الأمم المتحدة أمرًا بالقبض عليه، وقامت قواتها بتمشيط المدينة بالطائرات الهليكوبتر تفتش فى كل أنحاء المدينة عن الرجل. (ودمرت هذه الغارة مقر إذاعة مقديشيو الذى كان واحدًا من المؤسسات القليلة جدّا التى حوفظ عليها من المجموعات المقاتلة أثناء الحرب الأهلية؛ وذلك لأنها ليست مجرد محطة راديو، وإنما هى أيضًا مقر وزارة الاستعلامات، وهى أيضًا دار للمحفوظات الوطنية، والأرشيف والمكتبة الوطنية الصومالية التى تجمع آداب الصومال وثقافاتهم. . إن هذه الثروة القومية التى حطمتها قوات الأمم المتحدة بإغارتها على إذاعة مقديشيو قد دمرت إلى الأبد ثروة لا يمكن استعادتها).

ورغم الحصار الذى فرض على عيديد، فقد كان الصحفيون يجدونه بسهولة، ويجرون معه الأحاديث، وكانت خطبه وأقواله تتناقل فى الشوارع وبين الجماهير، ومع ذلك عجزت مخابرات الولايات المتحدة والأمم المتحدة عن ملاحقته.

ثم حدث الصدام الثانى بين قوات عيديد والأمم المتحدة عندما حاولت قوات الأمم المتحدة ـ مستخدمة الهليكوبتر ـ تدمير أماكن سلاح عيديد. وقد تكون هذه السياسة العمياء فى التدمير من الجو أضرت ببعض رجال عيديد وذخائرهم، ولكنها تسببت فى قتل المئات من أفراد الشعب الأبرياء، واستفزت المواطنين العاديين الذين شعروا أنهم يهاجمون من قوات أجنبية غريبة، وبدت قوات الأمم المتحدة تمثل قوات احتلال، وتحولت من مخلص لهم إلى محتل لأرضهم، وصارت عمليات «يونيصوم ١ و ٢» فى عيون الصوماليين عمليات جلب للموت، وتفجرت الاشتباكات العنيفة بين قوات الأمم المتحدة وبين المواطنين الصوماليين العاديين. ولم يعد فى مقدور قوات الأمم المتحدة أن

تسير فى شوارع مقديشيو، وكان عليهم أن يستخدموا الهليكوبتر فى تنقلاتهم العادية حتى لا يظهروا أمام الشعب الكاره لهم. هذا الوضع الذى أصبح مستحيلاً فى مقديشيو جعل الأمم المتحدة تطلب رأس عيديد. ولكن فشلت كل الجهود الدولية أن تقبض عليه أو تستميل أحداً من الصوماليين للإرشاد عنه وكشف مكانه، وهو أبلغ دليل على أن عيديد أصبح يمثل بالنسبة لشعبه بطلاً قوميّا تحميه الجماهير، فلم يفش أحد أمره رغم المكافأة لمن يرشد عنه.

والحقيقة أن الأمم المتحدة عندما تدخلت فى الصومال لم يكن لديها هدف واضح سوى القبض على عيديد. وقد انتقد ممثلها الخاص محمد سحنون هذا التدخل، وطالب بإيضاح الأهداف السياسية للعملية، وقال إن هناك ٣ آلاف طفل صومالى على الأقل يموتون، وقوات الأمم المتحدة تقف متفرجة، وقد طرده بطرس غالى الأمين العام للأمم المتحدة وقتها.

ثم أرسل الأمين العام للأمم المتحدة مستشاراً آخر هو «شنمايا حارنجان» الذى قام بجولة خاصة فى الصومال أعلن بعدها «هو أيضًا أن الأمم المتحدة تتصرف بشكل غير سليم فى الصومال، وأن عملية «يونيصوم ٢» عجزت أن تفعل شيئًا سوى قتل المئات من الأبرياء.

وأمام هذه الشهادات، وتدهور الوضع الأمنى للقوات الدولية، حاولت الأمم المتحدة احتواء الأمر بعقد مؤتمرات سياسية للقوى الوطنية. ولما كان عيديد أحد أطراف هذه القوى، وبما أنه مطلوب اعتقاله بتهمة ارتكاب جرائم حرب ضد الإنسانية، فقد نشأت عن ذلك مشكلة قانونية معقدة اضطرت الأمم المتحدة فى سبيل حلها إلى إلغاء قرارها باعتقال عيديد، وعاد حرّا طليقًا، وصار يمثل شعاراً ورمزاً للقومية الصومالية التى تدافع عن نفسها ضد القوات الأجنبية التى تطالب بدمه، وأصبح بطلاً قوميّا ورمزاً لدفاع الصومال عن نفسها ضد التدخل الأجنبى، وزادت شعبيته بين أنصاره، فزار دولاً عدة لقى فى معظمها استقبال الرؤساء، وزاد هذا قناعته بأنه الرئيس الوحيد للصومال. ولكن لم يكتب لعيديد أن يحقق هذا الحلم، فقد أزعج سلوكه الرئاسى أقرب الأشخاص إليه وممول آلته الحربية «عثمان على حسنى» الملقب «عطو» فانشق عليه وتحالف مع خصمه اللدود «على مهدى محمد» الذى نصب نفسه أيضًا رئيسًا

للصومال. وفى معركة مع فصيل على مهدى جرح عيديد، وضاعف من شدة إصابته مرضه بالسكر، ثم أعلن وفاته متأثراً بجراحه.

* * *

وبموت عيديد لم يتحقق السلام للصومال، بل زاد التطاحن والاقتتال بين قبائله وفصائل أمراء الحرب الذين دُفعوا من القوى الأجنبية، وتعقدت الأمور أكثر باشتراك أطراف إفريقية خارجية، إذ أقدمت جارته أثيوبيا بإيعاز من الولايات المتحدة على غزو الصومال، وبعدما كانت المواجهة صريحة بين القوى الصومالية وقوات أجنبية أصبحت المواجهة بين الصومال وأطراف إفريقية تساندها أمريكا صراحة..

الحقيقة أن الدور الذى قام به عيديد فى الصومال يعيد إلى الأذهان الزعامات الإفريقية التى استطاعت أن تقاوم الاحتلال الأجنبى، وتعيد صورة الزعامات الوطنية التى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، وقاومت وتصدت للاستعمار مثل نكروما وسيكوتورى وجومى كينياتا ونيريرى وغيرهم من جنوب الصحراء. وإذا كان عيديد لم يمتد به العمر ليحقق حلم استقلال بلاده ولم شمل ترابها، فهذا لا ينفى عنه أنه كان زعيمًا التف حوله شعبه وحماه من القوات الأجنبية عندما طالبت برأسه. وإذا كان موته قد يفتح الطريق إلى السلام كما كانت تقول الولايات المتحدة، فالسؤال أى سلام هذا؟ هل سلام يحترم السيادة الوطنية لشعب الصومال، أم سلام «بكس رومانا» السلام الرومانى الناتج عن هيمنة منفردة لإمبراطورية واحدة على العالم كله، كما كانت روما فى فترة ما قبل الميلاد.

* * *

الرئيس خاما

شيخ للقبيلة فى الرابعة من عمره . . خريج الجامعات البريطانية . . زوج لبريطانية فى شبابه . . ثم رئيس للجمهورية . . ظل يحارب فكرة القبلية حتى الموت . . وعندما مات أصبحت المشكلة صراعًا قبليّا حادّا .

هو الرئيس «سيرتيس خاما» رئيس بتسوانا الذى مات فى يوليو ١٩٨٠م، وأحدث نبأ وفاته تكهنات وتساؤلات حول مشكلة الاستقرار فى بقعة تموج بالاضطرابات والقلاقل . وبتسوانا دولة إفريقية صغيرة المساحة والإمكانيات والتعداد، لكن وضعها الجغرافى داخل حدود جنوب إفريقيا فرض عليها أن تصبح بؤرة للأحداث، سواء شاءت أم لم تشأ .

كانت بتسوانا إحدى المحميات البريطانية الثلاث التى تقع داخل حدود جنوب إفريقيا، وعندما أعلنت بريطانيا عزمها على الانسحاب من القارة الإفريقية، ومنح مستعمراتها الاستقلال، حصلت بتسوانا على استقلالها عام ١٩٦٦م فى هدوء . وأصبحت جمهورية يتولى رئاستها الرئيس الراحل «سيرتيس خاما» . ويقال إن بريطانيا كانت وراء وصوله إلى الحكم، فهو حفيد زعيم قبيلة «باما نجوانا» التى يبلغ تعدادها نصف سكان الدولة، وكان «خاما» قد صار رئيسًا للقبيلة وهو فى الرابعة من عمره . وعندما سافر إلى إنجلترا لاستكمال دراسته تزوج من بريطانية، وأدى هذا إلى انقسام داخل قبيلته وإقصائه عن رئاستها .

وفى عام ١٩٥٦م عاد «خاما» إلى بلاده، وبتأييد من الإدارة البريطانية الحاكمة عين فى الجمعية التشريعية، ثم أصبح رئيسًا للوزراء وانتخب رئيسًا للجمهورية منذ عام ١٩٦٦م . ومنذ تولى الرئاسة أعلن أنه سينتهج سياسة بعيدة عن النظريات السياسية،

ولكنه أصر على استمرار النمط الغربى للحياة فسمح بتعدد شكلى للأحزاب، مع الاستئثار بالسلطة، وأعيد انتخابه رئيسًا ثلاث مرات متتالية رغم مرضه وضعفه وعجزه عن مزاولة عمله.

عندما تولى «سيرتيس خاما» حكم البلاد كانت مشكلة الصراعات القبلية على أشدها. ورغم أنه من قبيلة «الباما نجوانا» أكبر القبائل فى بتسوانا، وهذا وحده كاف لكى تسود قبيلته إلا أنه للحقيقة والتاريخ وقف بإصرار ضد التحاملات الطائفية والمشاعر العرقية، واختار عددًا من أبناء قبيلة أخرى هى «الباكالانجا» فى حزبه الحاكم وعين بعضهم فى وظائف هامة فى جهاز الدولة متحديًا بذلك قبيلته فى رفضها لهذا المسلك.

وتمثل قبيلة «الباكالانجا» ١٥٪ من تعداد البلاد، وهى ليست أصلاً، من بتسوانا، فهى من زيمبابوى، ولكنها تشكل حاليًا أقلية قوية لها لغة متميزة وثقافة موحدة، وكثير من رجالها صاروا من كبار رجال الأعمال الناجحين وموظفين فى الإدارة الحكومية.

وحتى الاستقلال، كانت العلاقة بين هذه القبيلة الوافدة وبين أغلبية السكان الذين يتكلمون لغة «التسوانا» يشوبها كثير من العداء والعنف، ولكن ما اتبعه الرئيس «خاما» من سياسة عاقلة مع الأقليات القبلية، وقبوله تعيين عدد منهم فى وظائف حساسة جعلت ظاهرة الخلافات القبلية تختفى فى العلانية. وصارت أقرب إلى الأسرار الوطنية الواجب رعايتها بدقة. ولم تناقش قط نقاشًا مفتوحًا فى أى جهاز من أجهزة الدولة.

ولكن فجأة برزت على السطح وبشكل حاد مشكلة التعصب القبلى، وشهد برلمان بتسوانا مناقشات حامية تبادل أعضاؤه خلالها العبارات الغاضبة تتهم المحسوبية القبلية فى الوظائف والتعليم، وأصبح البرلمان ساحة للاتهامات العرقية، وأثيرت الخلافات القبلية بحيث صعب على الحكومة احتواؤها أو الرد عليها. وكل ما فعلته أنها ركزت جهودها فى الضغط على المنشآت الأنجلو أمريكية فى البلاد لتتبع فى التعيين نظام الحصص من الجماعات القبلية المختلفة.

ومما زاد حدة الخلافات القبلية تضخم عدد اللاجئين إلى البلاد من جنوب إفريقيا ومالاوى وموزمبيق وأنجولا وليسوتو. وكانت الحكومة قد أنشأت فى عام ١٩٧٨م

معسكراً فى منطقة تعرف باسم «دوكوى» ليكون مقرّا مؤقتًا لإيواء اللاجئين من روديسيا أثناء حرب التحرير، وباستقلال روديسيا (زيمبابوى) وعودة اللاجئين إليها، رغبت السلطات فى بتسوانا أن تحول هذا المعسكر إلى مركز للاجئين القادمين من جنوب إفريقيا، والذين زادوا بشكل ملحوظ فى أعقاب اضطرابات «سويتو» التى حدثت فى يونيو عام ١٩٧٦م، وأغلب هؤلاء المهاجرين طلاب وشباب فى سن العشرين. ولكن هؤلاء رفضوا أن يتجمعوا فى معسكر واحد، أو يتركزوا فى مكان يكون فى متناول جنوب إفريقيا. وقد رفضوا بشدة طلب الحكومة، فخيرتهم بين التوجه فى سلام إلى المعسكر أو أن يقصوا عن البلاد. وهددت الحكومة ٧٠٠ شخص منهم بتسليمهم إلى سلطات جنوب إفريقيا إذا لم يمتثلوا للأمر.

وتوتر الوضع أكثر عندما صعدت جنوب إفريقيا هجماتها وعدوانها على الأهالى لقمع الثورة الأهلية فى داخلها، فتدفقت أعداد كبيرة من اللاجئين إلى بتسوانا، زادوا الأمور تعقيدًا، وألقى الساسة باللائمة على المهاجرين، واتهموهم بتحريض الجماهير ضد السلطة الحاكمة، رغم أنه لا توجد شواهد تثبت هذا الزعم.

وعزا السياسيون كل ما يواجهونه من اضطرابات وتظاهرات وقلاقل إلى طلبة جنوب إفريقيا اللاجئين، واتهموهم بأنهم مصدر النشاطات المعادية. وفى الوقت نفسه استفادوا من هذا الوضع، وطلبوا من برامج الأمم المتحدة للتنمية زيادة المعونة لـ «بتسوانا» ومدها بمواد غذائية لمواجهة مشاكل البلاد.

وفى هذه الظروف الصعبة مات «سيرتيس خاما»، بينما تصاعدت الصراعات القبلية التى وهب حياته للكفاح ضدها.

إن خاما نموذج للرؤساء الأفارقة الذين آمنوا بالفكر الغربى، وحكموا على النمط الغربى من تعدد أحزاب فى وقت كان الحزب الواحد هو النظام السائد فى أغلب دول إفريقيا، ووقف بإصرار ضد القبلية والعرقية، ولكنه لم يستطع أن يقيم حكمًا ديمقراطيًا سليمًا؛ لأن التعدد الحزبى كان شكليًا، واستأثر هو بالسلطة، ولم يستطع أن يقضى على القبلية؛ لأنه كبت رغبات شعبه.

* * *

الكاباكا فى أوغندا
يبعث الممالك القديمة

سمعنا عن أمراء وملوك فى أوروبا استردوا عروشهم بعد الإطاحة بهم أو بذويهم، وظلوا فى المنفى سنوات، ثم عادوا ملوكًا على بلادهم، ولا نزال نسمع عن المطالبين بالعروش، أما فى إفريقيا ـ فلعلها أول مرة يسترد فيها أمير مملكته، جرى ذلك فى أوغندا، والجديد أن هذا الأمير عاد ملكًا على شعبه، وليس ملكًا على مملكته التى لم يعد لها وجود.

ففى حفل مهيب تكلف أكثر من ٢٠٠ ألف دولار توج الأمير رونالد موينداً موتيبى الملقب بـ «رونى»، واعترف به الكاباكا رقم ٣٦ لشعب الباجندا، وذلك بعد ٣٩ عامًا من عزل والده عن عرش باجندا.

ومملكة باجندا هى إحدى المماليك الخمس التى تكونت منها أوغندا، وحتى نهايات القرن الماضى لم يكن على خريطة إفريقيا شىء يسمى أوغندا، وإنما أطلق عليها البريطانيون هذا الاسم عندما فرضوا الحماية على هذا الجزء من إفريقيا عام ١٩٠٠م. وكانت باجندا التى تقع شمال بحيرة فكتوريا أرقى هذه الممالك التى تكونت منها أوغندا الحالية وأكثرها تقدمًا، وأدهشت الرحالة البريطانى برتون مكتشف منابع أعالى النيل لما رآه فيها من مبانٍ جميلة، وطرق منظمة، وزراعة متطورة، حتى أنه شبهها بالريف البريطانى.

ويعود التاريخ المعروف لمملكة الباجندا إلى بدايات القرن ١٦ عندما تأسست فيها مملكة أوتوقراطية سيطرت على القبائل المحيطة بها وحكمتها بقبضة حديدية، وكان ملكها يطلق عليه الكاباكا، ويعاونه مجلس مكون من رؤساء القبائل والعشائر يسمى

الكيكويو. ولم يكن الكاباكا يمكنه أن يبرم أمرًا دون أن يعرض على مجلس الكيكويو ويحصل على موافقتهم.

وفى نهايات القرن التاسع عشر، وبالتحديد فى عام ١٨٩٤م أعلنت الحماية على أوغندا، وظلت أوغندا تحت السيطرة البريطانية حتى حصلت على الاستقلال عام ١٩٦٣م، وأصبح الكاباكا والد الأمير رونى رئيسًا للدولة. ثم أطيح بالملكية، وأعلنت الجمهورية فى أوغندا عام ١٩٦٦م، وتولى ملتون أوبوتى ـ الذى كان رئيس الوزارة ـ رئاسة الجمهورية. ومنذ ذلك التاريخ ظل الأمير رونى يحلم بالعودة إلى بلاده، وظل شعب الباجندا يحلم أيضًا بعودة الكاباكا، ويقال إن قبيلة الباجندا لعبت دورًا كبيرًا فى الإطاحة بـ «أوبوتى»؛ إذ كانت من أكبر خصومه ومعارضيه.

ظل مستقبل ملكية الباجندا موضع شك حتى تولى الرئيس موسوفينى السلطة فى يناير ١٩٨٩م فأشار إلى أنه سيعيد الملكية لشعب الباجندا، ولكن ظل ذلك مجرد وعد حتى وفى به بعد مفاوضات جرت بين الأمير رونالد الملقب بـ «رونى» وبين الحكومة الأوغندية، شهدت أثناءها العاصمة كمبالا تظاهرات الآلاف من الباجنديين المناصرين للملكية، المطالبين بالعودة لها واسترداد حقوقهم وما كانوا يمتلكون.

وفى ٣١ يوليو ١٩٩٣م تحقق حلم شعب الباجندا، وعاد الأمير رونى موتيبى ليعلن عودة الملكية فى احتفال مهيب.

جاء المحتفلون من كل أنحاء البلاد، وبعضهم حضر من الخارج، وبدأ عدد منهم رحلاتهم قبل يوم الاحتفال بأسابيع، ومشى البعض على أقدامهم، وركب البعض الدراجات، ووصل أكثرهم بالحافلات والسيارات وعربات الأجرة والطائرات. كانت الرحلة من كمبالا تتجه إلى مقر الاحتفال فى تلال بودو، وما لبث أن صار هذا المكان تيارًا هادرًا من البشر.

فى ذلك الصباح كان حوالى ٢٠٠ ألف أوغندى يحيطون بمنطقة ماشيبوكا المقدسة فى تلال بودو، تجمع هؤلاء جميعًا بهدف واحد، هو مشاهدة تتويج الكاباكا الجديد الملك الروحى والزمنى لشعب الباجندا، ووسط الغبار وتحت شمس أوغندا الشديدة كان الناس يتحلقون ويتصافحون يرحب بعضهم ببعض، ويلتقى الأصدقاء ويرقصون

ويشربون ويتكلمون، كانوا يبتسمون ويضحكون ويقدمون الطعام والشراب والترحيب بالجميع، فقد كان تتويج صاحب الجلالة رونى (رونالد موتيبى) بوصفه الكاباكا السادس والثلاثين لباجندا إعادة لربط شعب الباجندا واسترجاع قوة تماسكهم التى تميزت بها على مدى ألف سنة من التاريخ القديم، والآن ـ مرة أخرى ـ يعودون وكأنهم أناس من الماضى.

إن تاريخ الباجندا اضطرب عندما أطاح بالقوة الرئيس ميلتون أوبوتى بالملك ويليام فردريك موتيسا والد رونى، ووقعت أوغندا فى الفوضى تحت حكم أوبوتى، ثم حكم خلفه عيدى أمين، وتناثر الباجندا فى أنحاء البلاد، وبعضهم اتبع الملك فى المنفى.

ومات الملك موتيسا فى المنفى فى بريطانيا بعد ثلاث سنوات من الإطاحة العنيفة به، مات فقيراً مكسور القلب، ولكن باحترام بالغ.

عندما ولد رونى موتيبى عام ١٩٥٣م كان أبوه موتيسا مغضوبًا عليه من حاكم أوغندا البريطانى سير أندرو كوهين لوقوف موتيسا فى وجه الحكم الاستعمارى. وكان رونى الطفل الثالث عشر من ستة عشر طفلاً لوالده.

أعد رونى منذ نعومة أظفاره للقيام بمهام خاصة، وكان أبوه يصحبه معه وهو فى الثالثة من عمره فى غزوات الصيد، وكان طفلاً سريع الفهم، يحاكى والده، ويعيش مع حرسه ويعتبرهم أصدقاءه، وقد تعلم بسرعة شديدة كيف يتعامل مع الدبلوماسيين.

فى عام ١٩٦٢م أرسل موتيسا ابنه رونى إلى إنجلترا ليتعلم، وفى ذلك الحين كانت الأزمة فى أوغندا بلغت ذروتها، واقتحم ميلتون أوبوتى قصر الكاباكا وأجبر موتيسا على التنحى والسفر واللجوء إلى إنجلترا. وعندما مات موتيسا رفض أوبوتى أن يعاد جسده ويدفن فى باجندا كما توجب العادات، وأعد له ضريح مؤقت فى إنجلترا. وبعد مراسم دفنه أعلن مؤيدو الملك السابق أن ابنه رونى البالغ من العمر ١٤ عامًا هو الكاباكا التالى، ووضع الصبى بعض الأغطية على جسد أبيه كدلالة على أنه قد خلفه.

شعر أوبوتى بحساسية شديدة لهذا الإعلان، فحذر رونى من العودة إلى بلاده، وهدده بأنه إذا وضع قدمه فى أوغندا فسيقبض عليه على الفور، ولكن لما تولى عيدى أمين السلطة بعد أن أطاح بميلتون أوبوتى سمح لجثمان الملك السابق موتيسا أن يعود

إلى أوغندا ويدفن فيها طبقًا للعادات المرعية، وتكملة للطقوس أعلن أحد كبار الباجندا رسميّا أن رونى موتيبى هو الكاباكا الجديد. ولكن لم تتخذ إجراءات التتويج؛ لأن الملكية كانت قد ألغيت فى أوغندا.

ظل رونى فى إنجلترا يكمل دراسته فى كامبردج، وأبدى اهتمامًا بالعلوم العسكرية، وطلب من الحكومة البريطانية السماح له بالالتحاق بكلية عسكرية ليتدرب فيها، ولكن طلبه لم يقبل؛ حتى لا تتوتر العلاقات البريطانية بالنظام فى أوغندا.

وبقى رونى فى كامبردج مدة قليلة درس فيها الصحافة، وكتب فى صحف متنوعة ووسائل نشر عديدة، وكانت هذه المدة فترة عصيبة بالنسبة له إذ كان ملكًا بغير تاج، وذا مملكة بغير وطن. ولكنه كان يتصرف كما لو كان ملكًا. . كان واثقًا من نفسه، وكان يميل إلى المزاح والفكاهة، شديد الاهتمام بالموضوعات التى تتعلق بإفريقيا، وكانت تحليلاته عنها عميقة، كما كان يهتم أيضًا بعرض الكتب، ويختارها بعناية، ويعرف جيدًا الكتاب الذى يثير الاهتمام. وقد قام بعرض مذكرات زعيم جنوب إفريقيا التقليدى يوثوليزى التى جذبت الانتباه، وكشفت عن الصراعات الحادة بين قبائل جنوب إفريقيا.

كان عام ١٩٧٦م نقطة تحول فى حياة رونى؛ إذ انغمس فى الصراع الدائر من أجل تخليص أوغندا من الحكم الديكتاتورى، وساعد رونى حركات المقاومة التى كانت تحارب بأسنانها وأظافرها من أجل تخليص أوغندا من ميلتون أوبوتى بعد أن عاد إلى الحكم مرة أخرى، ومن منفاه أيد رونى عددًا من حركات التحرير التى طلبت منه المساعدة، كما بذل مساعى فى تنقية الخلافات بين جماعات المقاومة، وانجذب بشكل خاص إلى موسوفينى واهتم به، رغم أن موسوفينى كان وقتها ضعيفًا ولا يزال يحتاج إلى الوقت لكى يستطيع أن يواجه أوبوتى، ولكنه كان بمثابة الحصان الفائز الذى لعب عليه رونى فساعده وأيده حتى نجح موسوفينى فى الإطاحة بأوبوتى وتولى السلطة.

عاد رونى موتيبى إلى أوغندا، وقضى وقته فى العمل مع الجماعات المحلية وتجديد العلاقات القديمة والتجوال فى المناطق التى دمرتها الحرب الأهلية، وبعد ثلاثين عامًا، وفى تلال بودو أذن للملك أن يتوج من جديد على عرش الباجندا، وجاء شعبه ليستعيد تاريخه. وتجمعت كل قبائل الباجندا البالغة ٥٢ قبيلة، وحضر كبراؤها ومن يمثلهم ليقدموا المراسم للأمير الذى صار ملكا.

تعود مراسم التتويج إلى زمن موغل فى القدم، إلى عصر الكاباكاكنتو سنة ١٣٠٠م الذى ينظر إليه كمؤسس لمملكة الباجندا. وتذكر الأسطورة أن الأمير كنتو مؤيد من خمس من قبائل الباجندا حارب أخاه بمبا وهزمه ودفن رأس أخيه المهزوم فى ناكيبوكو، وفى هذا الموقع نبتت شجرة كبيرة تشكل جذورها ما يشبه العرش، وتعرف بنامولوندو، أى المقعد الملكى للسلطة.

يبدأ الاحتفال بالكاباكا والكاتيكيرى (رئيس الوزراء) مع جيشهم، يقتربون من المكان المقدس ويقابلهم سيمانوب صانع الملك الذى يسألهم عما يريدون فيجيبون أن النار تشب ونحن أتينا بالأمير الذى اختير ليكون الملك الجديد. ويشتبك سيمانوب وجماعته المسلحون بالعصى من عيدان قصب السكر وأوراق الموز كدروع، يشتبكون مع الكاباكا فى صراع رمزى، ثم يهزمون ويبتعدون، فيواصل الأمير سيره لقمة التل.

وطبقًا للعادات، فإن الأمير المتوج المنتصر يجرح فى المعركة ويتجه إلى قرية بوانيكا ليغتسل وينظف نفسه من الدم، ويجرى ذلك فى سرية، ثم يظهر الكاباكا من موانيكا محمولاً على أعناق أعضاء من قبيلته بوفالو، فيدعى ليقف على العرش التقليدى، ويسلمه سيمانوب والملكة الأخت ملابس احتفالية خاصة مصنوعة من جلد النمر، ثم يعطى عدداً من الرماح ودرع ليدافع عن الباجندا وعن مملكته، ثم تجرى الذبائح كرمز لكرم الكاباكا على شعبه.

وبتتويج الكاباكا بواسطة كبار رجال قبيلته يبدأ دق الطبول التى تعرف باسم «ماجوجوزو» وهى أصوات عنيفة تصاحبها زغاريد آلاف النساء الحاضرات، وهذه الطبول الخاصة لا تدق إلا فى حضور الكاباكا.

ويعطى الكاباكا عهوده للقبيلة والشعب، ويحمل منتصراً بواسطة قبيلته بوفالو عائداً إلى مونيكا، وفيها يجرى احتفال آخر بالغ السرية تجفف فيه دموع الحزن على أبيه المتوفى. وبعد فترة قصيرة يبدأ احتفال آخر يسمى الاحتفال المسيحى حيث يخلع الكاباكا ملابسه التقليدية ويرتدى سترة خاصة ترمز إلى التتويج الرسمى.

وخلال إجراءات هذه الطقوس كان رونى تبدو عليه ملامح الجدية والوقار، وظهر بوضوح أنه رجل عصرى ذو أفكار عصرية، إلا أنه فى الوقت نفسه يؤكد على أهمية

احترام الطقوس التى تنبعث من جذور ثقافية عميقة تستبقى وحدة الباجندا فى عالم سريع التغير.

حضر حفل التتويج الرئيس موسوفينى الرجل الذى أعاد الكاباكا إلى شعبه، وظهر كضيف شرف محفوفًا بالتقدير، وذهب موسوفينى لأبعد من ذلك، فأمر بأن يسترد رونى قصر والده الذى كان قيادة الجيش اتخذته مقرّا لها، وأمر أن يعود القصر إلى استخدامه الطبيعى باعتباره مقر الكاباكا، خاصة أن الملك الجديد لا يملك منزلاً خاصّا، وكان يقيم فى بيت جدته.

قال رونى إنه سيبتعد عن السياسة، وإنه يرغب فقط فى تحديث مملكة الباجندا من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، وإنه سيهتم بالزراعة وتشجير البلاد حتى تعود واحة خضراء كما كانت فى العهود الماضية. وإنه ضد الأعراف والتقاليد القديمة الخاطئة. وقد تمرد فى زواجه، ورفض أن يختار له كبار القبيلة زوجته، واختار هو زوجة له، وأعلن أنه سيستمر فى العيش معها ومع ابنه منها.

ومن جهة أخرى، فإن استرداد الوضع الملكى فى أوغندا يواجه معارضة من كثير من شباب الباجندا الذين يرفضون العودة إلى الماضى، وهم أبناء الجيل الجديد الذين اعتنقوا المسيحية، وتعلموا تعليمًا حديثًا، وانفتحوا على العالم الخارجى، وهم يذكرون أن الكبار من الباجنديين التقليديين لا يزالون يؤمنون بالآلهة: لوبال، وأمندو، وهذا يتعارض مع المسيحية، كما أن هناك شعائر تتعلق بالملك تخطاها الزمن، وصارت لا موضع لها فى أوغندا الحديثة. فمثلاً يتساءلون هل سيصر الملك على أن يركع له رعاياه، وينحنون على الأرض أمامه؟ وهل سيصر على حقوقه الجنسية على رعاياه الإناث؟ وهل سيسمح بالسحر وعبادة الأوثان؟.. ومن الناحية السياسية هناك أبناء شعب الباكنتو الذين يدعون أنهم مؤسسو أمة الباجندا، ويريدون هم أيضًا التمتع بمميزات الباجنديين، وهذا ما يسبب انقسامًا داخل القبيلة. وهناك من يريد أن يتجاوز الكاباكا الوضع الثقافى ليصبح قائدًا سياسيّا، وهذا يشكل جذور الصراع داخل أوغندا. وكان قد اتفق خلال المفاوضات التى جرت بين الحكومة ورونى أن ينحصر دور الكاباكا الجديد فى إحياء الثقافة والتقاليد الباجندية دون أن ينغمس فى السياسة، أو أن يكون له دور سياسى، وهذا ما أعلنه رونى فى احتفالات تتويجه، ولكن ذلك لا يرضى شباب الباجنديين.

بوكاسا الطاغية

سقط «چان بيدل بوكاسا» إمبراطور إفريقيا الوسطى فى أكتوبر ١٩٧٩م. أطاح به انقلاب غير دموى أثناء عودته من ليبيا، قاده «ديفيد داكو» الرئيس السابق الذى حكم البلاد منذ استقلالها فى عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٥م.

وبسقوط «بوكاسا» اختفت من ا لمسرح السياسى شخصية من أقبح الشخصيات التى أساءت إلى إفريقيا، فقد كان نظامه يقدم دليلاً على اتهام العنصريين والاستعماريين بأن الإفريقيين لا يصلحون أن يحكموا أنفسهم.

جمع «بوكاسا» بين انفلاب عيدى أمين وإرهاب شاه إيران ودموية موبوتو. ويبدو أنه كان يدرك وهو يعد نفسه للسفر إلى ليبيا أن الانقلاب آت لا محالة؛ لذلك جمع معه كل ثروته ومجوهراته الثمينة.

جاء بوكاسا إلى السلطة إثر انقلاب عسكرى وقع عشية رأس السنة عام ١٩٦٥م، قاده ضد «ديفيد داكو». وظل شخصية حاكمة نكرة، حتى شدت غرابة تصرفاته وسكره اهتمام الصحافة الغربية.

كان بوكاسا قبل أن يصل إلى السلطة جنديّا فى الجيش الفرنسى. خدم فترة فى فيتنام. وأنجب هناك فتاة جعلته أضحوكة إفريقيا عندما أيقظ بوكاسا الشعب والسلك الدبلوماسى لاستقبال ابنته «مارتين» فى مطار «بانجى»، ثم اكتشف أنها ابنة مزيفة، وأن هناك فتاة ثانية بالاسم نفسه جاءت هى الأخرى.

فى فترة حكمه أصبحت العاصمة «بانجى» من أكثر مدن العالم خوفًا وارتعادًا.. ففى عام ١٩٧٢م أعلن «بوكاسا» أن اللصوص سيعاقبون بقطع آذانهم وأيديهم. وقاد

بنفسه جنوده؛ حيث قاموا بضربهم حتى الموت، وفى اليوم التالى عرضت جثث القتلى والجرحى فى وسط «بانجى».

فى عام ١٩٧٤م أعلن «بوكاسا» اعتناقه للماركسية، وقام برحلة إلى عدد من الدول الاشتراكية مثل رومانيا والاتحاد السوفييتى والصين وكوريا وتايوان. وفى عام ١٩٧٥م ذهب إلى ليبيا وأعلن اعتناقه للدين الإسلامى، وغير اسمه إلى صلاح الدين. وبعد عدة أسابيع عندما لم تصله الدولارات الليبية أعلن ارتداده عن الإسلام، وعاد إلى اسمه الأول چان بيدل.

وفى ديسمبر ١٩٧٧م نصب نفسه إمبراطوراً مدى الحياة. ولكن قبل أن تتم إمبراطوريته عامها الثانى بدأ عرشه يهتز، وساد الشعور بأن «بوكاسا» انتهى. ولم يكن هذا الشعور نابعًا من أحلام شعب إفريقيا الوسطى الفقير، ولكنه كان يستند إلى ظاهرة السخط المعلن التى أخذت تنمو ضده، ومن تصرفاته الشاذة مثل الأمر الذى أصدره أن يرتدى كل تلاميذ المدارس زيّا موحداً يشترى من محل تمتلكه زوجته الإمبراطورة، وهو المحل الوحيد الذى يحتكر بيع هذا الزى الغالى الثمن. فقام التلاميذ الصغار بمظاهرات احتجاج على القرار الإمبراطورى، وسرعان ما انضم إليهم الجماهير الساخطة.

عندما اشتدت المظاهرات طلب «بوكاسا» من صديقه «موبوتو» رئيس دولة زائير المجاورة العون العسكرى ليستطيع إعادة الأمور إلى نصابها. وشوهدت القوات الزائيرية تحرس الشوارع، بينما وضع قواته المسلحة داخل الثكنات. وقيل وقتها إن هذه الانتفاضة كانت أكبر اضطراب داخلى يحدث فى هذا البلد المغلق منذ أن نصب «بوكاسا» نفسه إمبراطوراً.

وبسبب الفساد وسوء الإدارة وفقدان الكفاءة ساءت الأوضاع الاقتصادية وأفلست البلاد تمامًا. وحدث انحطاط خطير فى كافة قطاعات الاقتصاد التى تجلب للدولة عوائدها، وانخفض إنتاج الماس من ٥٠٠ ألف قيراط إلى ٣٠٠ ألف، والقطن من ٤١ ألف قنطار إلى ٢٧ ألف، والبن (وهو أحد المصادر الأساسية للتصدير) من ١٢ ألف إلى ١١ ألف طن. وترتب على ذلك أن لم تعد للدولة ميزانية سنوية، إذ اعتادت على وضع ما يسمى بالميزانية الشهرية، تخصص كل شهر للنفقات الضرورية. وتوقفت

الدولة عن دفع رواتب موظفيها، فتجددت المظاهرات، وثار الإمبراطور غضبًا بسبب قذف الأطفال المتظاهرين لعربته بالحجارة فأمر بقتلهم، أطلق عليهم الرصاص، وطعنوا بالحراب وتركوا يحتضرون حتى الموت، وقيل إنه اشترك هو بنفسه فى المذبحة التى راح ضحيتها ١٠٠ تلميذ صغير حسبما ذكرت الصحافة.

وقد ركزت المذبحة الأنظار على سوء الأوضاع فى إفريقيا الوسطى. علق «چورچ بوكاسا» ابن الإمبراطور «بوكاسا» المنفى فى باريس والذى كان قد سحب منه لقب الأمير بعدما اختلف مع أبيه حول تجارة العاج، فاعتقله الأب ثم طرده من البلاد. علق الأمير قائلاً: «إن ما يجرى فى البلاد لا يمكن تصديقه.. إن الناس يعيشون فى رعب ولا يجرؤون على الكلام أو الاعتراض خشية الاعتقال.. وإن الأجور لم تعد تدفع.. ولم يعد ثمة أحد حر ولا أحد يزور أصدقاءه خشية أن يعتقل فى أى وقت.. إن الجيش لم يعد له وجود، ولم يبق سوى الحرس الإمبراطورى.. وإن أولاد الإمبراطور أنفسهم البالغ عددهم ٣٠ يقيمون فى سويسرا فيما عدا اثنين منهم اعتقل أحدهما أثناء المذبحة».

إثر الانقلاب هرب «بوكاسا» إلى فرنسا التى صنعته وساندته فى أحلك سنوات فساده وقسوته، ظن أنه سيجد فيها عيشًا رغدًا أو على الأقل حياة ميسورة، ولكنه لم يلق سوى خشونة فى المعاملة وشظف فى العيش، وعاش فى تقتير مادى حتى أنه عجز عن دفع فواتير الكهرباء والماء فى القصر الذى كان يقيم فيه فى ريف فرنسا.

منذ أن أطيح به ظل «بوكاسا» يردد أنه مستعد للعودة إلى بلاده ومواجهة عقوبة الإعدام التى صدرت ضده غيابيًا عام ١٩٨٠م، وأن الحكومة الفرنسية هى التى تخشى عودته؛ لأنه يعرف أسرارًا كثيرة عنها، ولديه الكثير الذى يفشيه عن فضيحة الماس التى أودت بالرئيس جيسكار ديستان، وبسببها وصل ميتران إلى السلطة.

وفى عام ١٩٨٥م استطاع بوكاسا الهرب من منفاه بفرنسا بمساعدة أمريكية وعاد إلى بلاده بمحض إرادته وسلم نفسه لسلطاتها، وصرح بأنه لا يخشى أن ينفذ فيه حكم الإعدام، وأنه جاء ليثبت براءته أمام العالم، وأنه لم يكن من أكلة لحوم البشر، ولا متعطشًا للدماء، وأنه برىء من مذبحة الطلبة، ومن القصص الخيالية الملفقة التى تروجها عنه الصحافة الغربية بأن ثلاجته كانت تمتلئ بالجثث الآدمية، وأنه كان يتلذذ

بأكل لحم معارضيه، وكان يختار كل يوم قطعة منها لغدائه وأخرى لعشائه. ولم تتورع صحيفة «محترمة» مثل الديلى تلجراف البريطانية من أن تكتب على لسان القنصل البريطانى فى ذلك الحين (ويدكو برمان) أن بعض وزراء إفريقيا الوسطى اكتشفوا عقب مأدبة أقامها لهم «بوكاسا» قبل الإطاحة به بأيام أنهم التهموا لحم أحد زملائهم، هذا رغم أن الشرطى الفرنسى الذى كلف بالقبض على بوكاسا صرح لدى وصوله فرنسا أن بوكاسا لم يكن أبدًا سفاحًا أو متعطشًا للدماء كما تصوره الصحافة.

أعيدت محاكمة «بوكاسا» وحكم عليه بالسجن ٢٠ عامًا، ولو كان ارتكب الجرائم التى اتهم بها لما أفلت من حبل المشنقة.

وبعد ثمان سنوات فى سبتمبر ١٩٩٣م أطلقت السلطات سراح «بوكاسا» وأدهش هذا الإجراء المفاجئ الجميع، ولكنه دلل على أن تخفيض الحكم بالإعدام ثم الإفراج عنه والاستقبال الذى لاقاه عند خروجه من السجن، فقد التف حوله أكثر من ثلاثة آلاف من مؤيديه وهتفوا باسمه، كل هذا كان مؤشرًا على صدق كلام «بوكاسا» بأن السلطات الفرنسية هى التى ساهمت فى إقصائه بعد حملة تشهير بررت أمام الرأى العام العالمى الإطاحة به.

إن الدول الكبرى وأجهزتها ومخابراتها وتدخلاتها فى شئون الدول الصغرى أمر معروف ووارد، كذلك الذى لا يمكن تجاهله أو إنكاره أن «بوكاسا» كان حاكمًا فاسدًا، يكفى ما أنفقه من خزائن بلاده الخاوية من أجل الاحتفالات بتنصيبه إمبراطورًا، ولكنه أيضًا لم يكن أفسد ولا أسوأ من غيره من الحكام الذين نالوا تأييد ومساندة الغرب لهم حتى الممات مثل موبوتو رئيس زائير الذى حكم أكثر من ٣٥ عامًا، وجرائمه معروفة بدءًا بمقتل الرئيس لومومبا، وانتهاء بالمذابح التى راح ضحيتها ألف قتيل، وهى مذبحة جنوب كاساى، ومذبحة باندوندو، ومذبحة الطلبة فى موميباشى. هذا فضلاً عن اختلاسه المال العام، وكانت ميزانية البلاد توضع باسمه فى بنوك الخارج. وظل موبوتو يلقى التأييد والعون الدوليين.

ولكن خطيئة «بوكاسا» أنه كان يلعب على المكشوف.. لم يهرب أموال بلاده للخارج كما فعل رؤساء أفارقة لم يفرقوا بين المال العام والمال الخاص، ولا بين أملاك الدولة وثرواتهم الخاصة، وأشرفت خزائن دولهم على الإفلاس، بينما حساباتهم فى

البنوك الأجنبية تتزايد بتزايد فقر بلادهم، وإنما كان ينفق ثروة البلاد على ملذاته وعلى الهدايا لرؤساء الدول ليساعدوه فى البقاء فى السلطة، مثلما فعل مع الرئيس الفرنسى ديستان، وعندما أطيح بـ «بوكاسا» لم توجد له ثروات فى الخارج سوى قصر فرنسا الذى التجأ إليه وعجز عن دفع نفقات إدارته، فقطعت عنه الكهرباء والماء عدة مرات.

وليس هذا دفاعًا عن «بوكاسا» فقد كان حاكمًا جاهلاً ظالمًا غبيًا أحمق وصل إلى رئاسة البلاد فى غفلة من الزمان بمساندة فرنسا المستعمر القديم لبلده التى اختارته وأعدته لهذا الدور، وعندما حاول أن يمارس قدرًا ضئيلاً من السلطة أطاحت به، وشنت حملة ضارية لتشويه وتسوىء سمعته التى ليس لها ـ أصلاً ـ رصيد.

* * *

الملك «سوبهوذا»
بقايا زعامات اندثرت

فى أغسطس ١٩٨٢م، فقدت مملكة سوازيلاند (إحدى المحميات التى تقع داخل جنوب إفريقيا) ملكها سوبهوذا الذى مات عن عمر يبلغ ٨٣ عامًا مخلفًا وراءه خمسين زوجة و٤٠٠ من الأبناء. . هذا الملك الملقب بأسد إفريقيا يعد من بقايا الزعامات القبلية التى اندثرت، والتى كانت تنسج حولها الأساطير، فقد استمر يرتدى جلود الحيوانات ويتزين بريشها حتى الممات ورفض طوال حياته أن يغيره حتى وهو يقابل ملوك ورجالات مستعمريه البريطانيين.

وكما كانت حياته مثاراً للتندر، فإن مماته لم يمر دون خيال أيضًا، فقد دفن فى مقبرة داخل أحد الكهوف منتصبًا برمحه ودرعه!! وفى رواية أخرى أن الملك لم يدفن؛ فالتقاليد الملكية فى سوازيلاند تترك جثمان الملك إلى أن يتحلل ولا يبقى منه سوى عظامه. وأن زوجته الأولى الملقبة «بأنثى الفيل» هى التى تدير شئون البلاد حتى تتم طقوس الموت واختيار الملك الجديد.

ورغم طول عمر وحكم «سوبهوذا»، فإنه لم يحقق حلمه بتوسيع مملكته وضمه الأراضى التى اقتطعت منها. وكان «سوبهوذا» يطالب بإقليمين يقول إنهما ضما بطريق الخطأ إلى جنوب إفريقيا فى بدايات هذا القرن عندما رسمت السلطات البريطانية الحدود بين البلدين. وهى أجزاء ظل يسودها الحكم الملكى السوازى حتى نهايات القرن التاسع عشر. ولا يزال سكانهما يتكلمون لغة السوازى، ويدينون له بالولاء كزعيم قبلى.

ومملكة «سوبهوذا» أى سوازيلاند تقع داخل حدود جنوب إفريقيا، وهى أصغر دولة فى إفريقيا الجنوبية إذ لا تزيد مساحتها عن ١٧,٥ ألف كيلومترًا مربعًا وسكانها لا يزيدون عن ٥٥٠ ألف نسمة. وإضافة هذين الإقليمين لهذه الدولة الصغيرة معناه أن عدد سكانها سيتضاعف، ومساحتها ستزيد بما لا يقل عن الثلث. والأكثر من ذلك أن ضم الإقليم الجنوبى سيحول البلاد من دولة قارية بلا سواحل إلى دولة لها منفذ صغير على المحيط الهندى.

والمنطقتان مجال النزاع هما «كونجوان» التى تقع شمال سوازيلاند، وهى منطقة ريفية فقيرة كانت تنفى فيها حكومة جنوب إفريقيا كل عام عشرات الآلاف من الإفريقيين غير المرغوب فيهم. وكان عدد سكانها حتى عام ١٩٧٠م لا يتجاوز ٧٠ ألفًا، ويقدرون الآن بين ٢٢٠ ألفا و٣٠٠ ألف. والمنطقة الثانية هى «إنجوانوما» وتقع فى الجنوب الشرقى لسوازيلاند، وسكانها حوالى ٦٦ ألفًا أغلبهم يفضل البقاء جزءًا من جنوب إفريقيا على الانضمام إلى سوازيلاند.

وعندما أعلن الملك عن نيته المطالبة بضم الإقليمين شمل الرأى العام فى البداية نوع من السرور، ولكن سرعان ما زال هذا الشعور بعد أن تبين أبعاد الموضوع، فهو وإن كان من الناحية النظرية يعد مطلبًا وطنيًا إلا أنه يحمل فى طياته مؤامرة خطيرة على الوطنيين الإفريقيين فى جنوب إفريقيا كان يمثل تواطؤًا مع حكومة بريتوريا لتحقيق أهدافها العنصرية (ملحوظة حتى بعد أن تخلصت جنوب إفريقيا من النظام العنصرى، وأصبح لها حكومة وطنية لا يزال الوضع كما هو).

تتلخص أبعاد المؤامرة ـ كما اتضحت ـ أن جنوب إفريقيا هى التى أوحت إلى الملك «سوبهوذا» بالمطالبة بتوحيد أراضى مملكة السوازى، وهى تهدف أن يتيح لها هذا الضم تجريد كل من ينتمون إلى قبائل السوازى من أى ادعاء يتعلق بحقوقهم السياسية فى جنوب إفريقيا. وقبائل السوازى تنتشر فى طول دولة جنوب إفريقيا وعرضها، وأغلبيتها لا تعيش فى المنطقتين المراد ضمهما، ولم يذهبوا يومًا إلى واحدة منهما. وهؤلاء مواطنون ولدوا منذ أجيال فى مناطق مختلفة فى جنوب إفريقيا، وليست لديهم نية الهجرة، ولا رغبة فى ترك حقوقهم فى المواطنة فى جنوب إفريقيا، وهم يكافحون من أجل حقوقهم السياسية على الأرض التى ولدوا فيها.

وعندما أعلن الملك عن هذا المشروع ثار جدل ونقاش داخل سوازيلاند، وانقسمت الآراء إلى ثلاثة اتجاهات:

● الجيل القديم يميل إلى تأييد الملك. وهم يتساءلون مندهشين كيف يمكن أن يكون مشروع كهذا مرفوضًا، وهو يكسب لسوازيلاند بالوسائل السلمية أرضًا وبشرًا؟!. وفضلاً عن ذلك، فإذا كانت هذه الأقاليم القبلية تنتمى إلى سوازيلاند فإن سكانها لن يعانوا من التفرقة العنصرية التى كانت تطبقها عليهم جنوب إفريقيا.

● والقسم الثانى يرحب بضم الإقليم الجنوبى؛ لأنه سيصل بينهم وبين البحر، ولكنه يرى فى ضم الجزء الشمالى أمرًا غير مفيد بالمرة؛ لأنها أرض بور مزدحمة ذات منظر جميل، ولكن ليس لها مستقبل اقتصادى.

● أما الشباب السوازى المثقف فهم يرون فى الأمر إهدارًا لمبدأ سياسى، فإن حصول سوازيلاند على هذين الإقليمين سيخلق مستودعًا جديدًا تلقى فيه حكومة جنوب إفريقيا بغير المرغوب فيهم من الإفريقيين. وهذه العملية تجرد هؤلاء من حقوق المواطنة، وتساهم فى دعم السياسة العنصرية التى كانت تطبقها حكومة بريتوريا قبل الاستقلال.

على أن مشاعر الغضب الحقيقية تفجرت داخل المنطقتين، فأهلها ليست لديهم الرغبة فى أن يكونوا أجزاء من ملكية تنتمى إلى العصور الوسطى. وهم يرون أنهم أبناء جنوب إفريقيا ويريدون أن يبقوا جزءًا منها يكافحون من أجل مستقبلهم الديمقراطى فيها.

كذلك يعارض هذا المشروع غالبية السوازيين الذين يعيشون فى جنوب إفريقيا؛ ويعللون ذلك بأن قبول هذا المبدأ سيمكن بريتوريا من تحقيق سياستها الخاصة بإقامة أوطان محلية تؤدى إلى اعتبار ٢١ مليونًا من الإفريقيين المواطنين فى جنوب إفريقيا أجانب، وتصبح الأقلية البيضاء فى جنوب إفريقيا وهم ٤,٥ مليون أغلبية لا من الناحية الفعلية كما هو الحال، بل من الناحية الشرعية كذلك.

وقبل موت الملك بأيام قلائل أصدر وزير خارجيته تصريحًا حذر فيه الرأى العام من أن مسألة الحدود يعالجها الملك بنفسه بمشورة حكومته. وحذر الرأى العام من أن يستمع إلى أى شىء يقال فى هذا الشأن إلا ما يصدر عن جلالة الملك.

ويقال إن الملك مات كمداً بسبب معارضة شعبه له؛ ولسوء فهم الجيل الجديد الذى بلغ به ضيق الأفق حسب تصوره ألا يقبل أن تتسع مملكته. إن «سوبهوذا» ينتمى بمفهومه وعقليته إلى الجيل القديم الذى يعتز بالقبلية قبل القومية.

وعلى أية حال، فقد مات الملك قبل أن يحقق مشروع التوسع، ومات المشروع بموته، فلم يتحمس خلفه له؛ إذ خشى ما قد يحدثه من تحولات اجتماعية واقتصادية داخل البلد الموسع، وما قد تفضى إليه من نتائج يصعب التنبؤ بها.

* * *

ماركوس جارفى
مبدع شعار «إفريقيا للإفريقيين»

فى مايو ١٩٤٠م، نشرت الصحافة العالمية نعى ماركوس جارفى الذى يعد من أهم الشخصيات فى تاريخ حركة الجامعة الإفريقية. ولكن جارفى لم يكن قد مات، فقد كان منفيّا فى لندن، وقرأ نعيه وعلق ساخرًا: لقد أماتونى بعدما عجزوا عن موت أفكارى.

وماركوس جارفى هو الزعيم الأسود الجاميكى صاحب دعوة «إفريقيا للإفريقيين» الذى يعد أكثر الزعماء السود إثارة للجدل. حورب فى حياته، وأنكر فى مماته، وتكاتفت جهات عديدة فى أن تطبق الصمت عليه، وتفقد الثقة فى رسالته التى كانت تتلخص فى توحيد الزنوج فى جميع أنحاء العالم فى جنس واحد قوى، وكوَّن جماعة جعل شعارها «إفريقيا للإفريقيين فى الوطن وخارجه». وفى ظل هذه الفكرة لم يهدأ يومًا عن تكرار صيحته «استيقظى يا إفريقيا.. استيقظ أيها الجنس القوى؛ فإنك تستطيع أن تحقق ما تريده.. إنها مجرد بضع سنوات حتى يتيسر للزنوج أن يسيطروا على إفريقيا كما سيطر البيض على أوروبا، ولا أحد يعرف متى تحين ساعة صحوة إفريقيا، ولكنها آتية مثل إعصار، ولسوف تحل هنا بيننا».

لم يكن جارفى إفريقى المولد، ولم ير والده ولا أجداده إفريقيّا قط، كذلك لم تكن الرابطة الجسدية أو سمة اللون إلا مجرد علامة، ولكن الجوهر الحقيقى لإيمانه بإفريقيا وأبنائها هو التراث الاجتماعى المشترك للعبودية والتفرقة العنصرية والمهانة. اكتشف جارفى هذه الحقيقة، فأمضى حياته للدفاع عن الجنس الأسود وإحياء كبريائه وتحريره من عبودية البيض. واقتنع بأن العنف هو الوسيلة المحبذة لتحقيق ذلك حتى ولو صدر

من عدوه، كان العنف فى نظره هو الطريق المؤدى لأهدافه، وكان يقول إن الشعار الذى يجب أن يتمسك به الزنوج فى جميع أنحاء العالم هو القوة لا القانون، والسلطة لا العدالة.

لم يكن جارفى يهدف باستعمال العنف للوصول إلى المساواة بين الزنجى والأبيض، بل قطع شوطًا أكبر من ذلك، فالإفريقى فى نظره هو أرقى الأجناس، يقول: «إننا لا نطالب بالمساواة بالرجل الأبيض.. إننا نطالب بالسيادة والتفوق على الجنس البشرى كله». وهكذا اختلطت أفكار جارفى بالعنف والعنصرية حتى أطلقت على حركته «الصهيونية السوداء»، فقد كان لا يعترض على جمعيات البيض الإرهابية مثل «كلوكلوكسى كلان»؛ لأنه رأى أن أعمالها تشعل نار الوطنية والحماس عند الزنوج. وأدى هذا الفكر الصارخ المتطور المتحدى إلى هدم مصداقية أفكاره وحورب من أجلها. والحقيقة أن جارفى كشخص والجارفية كحركة حملت عدداً من المتناقضات، فكان يدين النازية لمعاداتها السامية، ولكنه توحد بشدة مع الفاشية الأوروبية، وكان معجبًا بالديكتاتورية وبوعودها بالقوة والنظام والدولة الفعالة، وكان يذكر بفخر أن موسولينى وهتلر نقلوا برنامج منظمته.

انتشرت أفكار جارفى بين زنوج الولايات المتحدة فى وقت علا فيها نجم الأفكار الفاشية، وكان يفتخر ويقول: «نحن الفاشيون الأول، فقد نظمنا الرجال والنساء والأطفال وربيناهم لتحرير إفريقيا، إن الجماهير السوداء أصلها الوحيد إنما يتجلى فى هذه القومية المتطرفة، لقد اقتبس موسولينى الفاشية منى، كثيراً ما سألت أين هى حكومة الرجل الأسود، وأين ملكه ومملكته، وأين رئيسه وبلاده وجيشه ورجاله الكبار؟ لم يمكننى أن أعثر عليهم؛ ولهذا فقد أعلنت أنا أننى سأعمل على خلقهم».

حاولت جهات كثيرة أن تسكته وأن تفقد الثقة فى رسالته التى كانت تقوم على الاعتداد العنصرى والاكتفاء الذاتى للاقتصاد الأسود والاستقلال السياسى فى إفريقيا. وبالرغم من هذا العداء، فإن جارفى نجح فى أن يجعل جماعته من أكثر الحركات السوداء تأثيراً بين الزنوج فى الولايات المتحدة، كما جعلها قوة إيجابية ضد استعمار إفريقيا.

ولد ماركوس جارفى فى جاميكا عام ١٨٨٧م من عائلة زنجية من سلالة العبيد الإفريقيين الذين كونوا جماعات مستقلة فى مناطق الجبال النائية فى جاميكا فى القرن

الثامن عشر. وهذا التراث قد يكون أضاف شيئًا إلى الكبرياء العرقى الذى تميز به جارفى وسياساته الانفصالية التى هوجم من أجلها. وفى جاميكا عمل جارفى فى الطباعة، وانخرط فى الحركة النقابية، وأنشأ صحيفة تعارض الاستعمار البريطانى أطلق عليها «العالم الزنجى»، وسافر إلى أوروبا وأمريكا الوسطى قبل أن يؤسس جمعية الإصلاح الزنجى المتحدة فى جاميكا. وبعد عامين بدأ رحلته فى أمريكا الشمالية لجمع التمويل اللازم لحركته، ثم نقل مقر الجمعية إلى هارلم، ومنها انتشر تأثيره.

وفى نيويورك أنشأ جارفى «الفرقة الدولية الإفريقية» وجمعية ممرضات الصليب الأسود، وشركة بواخر النجمة السوداء التى يعود على سفنها الزنوج الأمريكيون إلى إفريقيا الوطن الأم، كما أصدر صحيفة «العالم الزنجى» عام ١٩٢٠م ورأس تحريرها. وفى العام نفسه أعلن جارفى قيام إمبراطورية الزنوج فى نيويورك لتضم جميع هذه المنظمات السابقة وهو يقول: «ليس لهذه الإمبراطورية أرض، ولكن رعاياها يعدون بالملايين، وهم موزعون فى جميع أنحاء البسيطة، لماذا يكون للبيض رئيس يسكن البيت الأبيض فليكن للسود بيت، ولأكن أنا رئيس السود فى جميع أنحاء العالم». وفى أغسطس ١٩٢٠م عقد جارفى برلمانه الأول بمناسبة ذكرى تحرير العبيد، وقال فى هذا المؤتمر العاصف: «دعونا نعمل من أجل الغاية الوحيدة لنا فى أن نصل إلى تكوين أمة حرة وقوية تصبح كوكبًا ساطعًا بين نجوم الأمم». وفى نهاية المؤتمر أعلنت وثيقة إعلان حقوق الشعوب الزنجية فى العالم التى أشارت إلى وجوب إقامة أخوة عالمية بين أبناء الجنس الزنجى، والمساعدة فى تنمية الشعوب والجماعات الزنجية المختلفة، وإقامة أمة مستقلة تضم أبناء هذا الجنس، وهيئات وأجهزة فى المدن الهامة لتمثيل جميع الزنوج. وبجانب هذا أقام جارفى للزنوج «الكنيسة الإفريقية الأرثوذكسية» وتساءل: «أمن المعقول أن تسمى ملاكًا ذلك الرجل الذى يهاجمك فى بيتك، ويطاردك فى أرضك، ويصطادك كما تصاد الحيوانات، ويضع الأغلال فى عنقك، ثم يبيعك بالرطل فى الأسواق العامة؟ ثم أمن المعقول أن تسمى ضحية هذا الرجل شيطانًا؟ لماذا ـ إذن ـ يكون لون الملاك أبيض ولون الشيطان أسود؟» وبناء على هذا رسم جارفى فى كنيسته الشيطان باللون الأبيض والملاك باللون الأسود.

كانت استراتيجية جارفى للتقدم بالشعب الأسود تتحصل فى إنقاذ إفريقيا من الاستعمار الأبيض، وكان جارفى مقتنعًا أن الفرصة الوحيدة للعنصر الأسود كى

يسيطر على مصيره ويتخلص من التمييز العنصرى فى السياسة والاقتصاد هو أن ينشئ فى أرض إفريقيا الأم جماعة مستقلة ذات اكتفاء ذاتى «إننا نعتقد فى حق الزنوج الموروث فى أن يحكموا أنفسهم فى إفريقيا، وأن الجهود التى ينبغى أن تبذلها «جمعية الإصلاح» يجب أن تتجه إلى إنشاء أمة زنجية مستقلة فى قارة إفريقيا». ومن أجل هذا الهدف سعى جارفى إلى إقامة ما يشبه الوحدة بين أمريكا وإفريقيا عن طريق هجرة الزنوج الأمريكيين إلى إفريقيا، وإقامة دول لزنوج العالم الجديد فى القارة الإفريقية شبيهة بليبيريا، وكان يدعو الزنوج الأمريكيين إلى أن يتوجهوا إلى القارة الإفريقية ليسهموا فى تقدمها، وقد خطى خطوة عملية؛ إذ بعث خطاباً إلى السلطات الليبيرية لتمنحه أرضًا يستوطن فيها الزنوج الأمريكيون، إلا أن جهوده باءت بالفشل.

وبصرف النظر عن هذه الأفكار الجامحة، فإن دعوة إفريقيا للإفريقيين كانت ذات تأثير مزدوج. الأول أنها زادت زيادة كبيرة من الشعور بالتراث العرقى، ومن الأخوة بين السود فى نصف الكرة الغربى (الأمريكتين)، ولأول مرة استشعر زنوج أمريكا والكاريبى الفخر والكبرياء بأصولهم الإفريقية، فقد كان يبشر بإعادة الاكتشاف الروحى والوجدانى للتراث الأسود العام. كتب فى افتتاحية صحيفته عام ١٩٢٥م «لقد أتى الوقت للزنوج كى ينسوا الانبهار بالأجناس الأخرى وعبادة البطولات فيها، ولكى يتطلعوا إلى خلق البطولات بين ذويهم».

أما التأثير الثانى لرسالة جارفى فقد أضاءت إفريقيا وساعدت القادة الوطنيين الأوائل فى أن ينفضوا القيود النفسية والمعنوية التى فرضها الاستعمار، وأن يتخذوا الخطوات لاكتشاف تراثهم. وكان الوطنيون الكينيون فى كينيا يجتمعون ليستمعوا إلى صحيفة جارفى «العالم الزنجى» وكانت تقرأ بصوت عال، ثم ينتشر السامعون فى الغابات لإبلاغ رسالة جارفى لمن لم يسمعها من السكان هناك.

وقد كان لـ «جمعية الإصلاح» الزنجى وجود قوى فى لاجوس (نيجيريا). وفى منتصف العشرينيات كان فى جنوب إفريقيا ثمانية فروع، حيث وجد مناضلون عمال وزعماء لحزب المؤتمر الوطنى الإفريقى، وقد اعترف هؤلاء بتأثير جارفى عليهم. وفى الكونغو حملت بعثات التبشير رسالة جارفى إلى داخل الكونغو. وعلق الرئيس الغانى

الراحل كوامى نكروما بقوله: «إن كل الأدب الذى تعلمته والكتاب الذى فعل الكثير ليشعل حماسى كان كتاب فلسفة ماركوس جارفى وآراءه».

وفى بلاد الفرانكوفون فى غرب إفريقيا كانت السلطات الاستعمارية تحذر من نفوذ جارفى، بحيث إن ضبط إنسان يحوز صحيفة «العالم الزنجى» كان يعرضه للعقاب.

الخوف من الكبرياء الأسود

إن الخوف من الجارفية ونظرياتها عن الكبرياء الأسود لم تكن محصورة فى السلطات الاستعمارية فى إفريقيا. ففى ١٩١٩م حاولت السلطات الأمريكية إبعاد جارفى من أمريكا، ولكنه لم يخالف ولم يعتد على أى قانون من قوانين الفيدرالية، وبقى اضطهاد الحكومة له حتى تركها نهائيًا عام ١٩٢٧م.

وأيضًا، كان هناك عدد من المنظمات السوداء التى تعارض جارفى، ومن أهمها «الجماعة الوطنية لتقدم الشعب الملون» التى طالبت بإبعاده؛ إذ اعتبرت دعوة جارفى إلى العودة إلى إفريقيا نزعة انفصالية، ونوعًا من أنواع الخيانة السياسية عندما كان السود فى أمريكا يكافحون من أجل المساواة فى وطنهم.

على أن أهم نقد وجه إلى جارفى كان من الداعية العظيم للجامعة الإفريقية ديبوا الذى قال: «إن رسالة جارفى كانت استسلامًا، فالصراع عنده غير مجد؛ لذا ينبغى العودة إلى إفريقيا ومحاربة الرجل الأبيض هناك». وقد واجه جارفى ذلك «بأنه إذا كانت العنصرية البيضاء لم تسمح قط للسود بالمساواة الحقيقية ولا بتكافؤ الفرص فى أمريكا، فإن الانفصال هو الحل الوحيد».

واليوم إذا جاز الحكم على حركته، فقد كانت متمشية فى ذلك الوقت مع التيارات الفاشية التى سادت العالم، ومع أحوال الزنوج داخل الولايات المتحدة وبقايا آثار عصر الرق التى كانت لا تزال ماثلة فى الأذهان، والدليل على هذا أن جارفى استطاع أن يجمع من حوله أنصارًا كثيرين، وأنه برغم العنصرية الواضحة التى تميزت بها حركته، فقد كان لها أثرها فى الإعلاء من كرامة الشعوب الملونة، وتأثيرها على بعض الزعامات الإفريقية التى تأثرت كثيراً بفكرة «استيقظى يا إفريقيا». وكان جارفى مع كل

هذه الثورية ساذجًا سياسيّا واقتصاديّا، فقد انهارت المشروعات الرأسمالية السوداء التى دعا إليها بسبب الفساد وسوء الإدارة.

ولكن هذا القصور فى شخصية جارفى وفى تنظيماته لا يؤثر على إنجازه البارز، وهو إذا لم يكن إداريّا ولا اقتصاديّا ولا سياسيّا فقد كان شيئًا أكثر تفردًا، كانت له رؤية حقيقية، وكان قادرًا على إلهام السود بأن يحاولوا إنجاز ما كانوا يؤمنون أنه فوق مقدورهم، فقد أعاد الضمير والوعى الأسود إلى الانطلاق نحو الكبرياء العرقى ومساعدة النفس والتضامن. ومنذ وفاته منذ أكثر من خمسين عامًا، فإن هذه الرسالة الجوهرية لا تزال تحيا وتزدهر.

* * *

دى بوا.. أبو الجامعة الإفريقية

فى احتفال مهيب، احتفلت حكومة غانا فى أغسطس ١٩٨٦م بنقل رفاة «دى بوا» وزوجته «شيرلى جراهام» إلى الضريح الذى أعد لهما فى قلب العاصمة الغانية بجوار المركز الرئيسى الذى أنشئ تخليداً لذكراهما الذى يسمى «مركز دى بوا التذكارى لثقافة وفكر الجامعة الإفريقية»؛ وذلك بمناسبة الذكرى ٢٣ على وفاة «دى بوا».

وإذا كان «دى بوا» ليس إفريقى المولد، إلا أنه وزوجته اتخذا من غانا موطنًا لهما منذ عام ١٩٦١م، وظلا بها حتى توفى دى بوا فى ٢٧ أغسطس ١٩٦٣م ودفن فيها، ولكن فى مكان بعيد. أما زوجته «شيرلى» الفنانة الموسيقية والكاتبة التى ألفت أحد عشر كتابًا أشهرها عن «عبد الناصر» ونيريرى وعن قبائل الزولو، فقد ظلت تعمل فى غانا بعد وفاة زوجها مديرة للتليفزيون الغانى حتى وقع الانقلاب العسكرى ضد نكروما عام ١٩٦٦م. فسافرت إلى الصين وماتت هناك. وفى عام ١٩٨٤م قام ابنهما «ديفيد» بنقل رفاتها إلى غانا لترقد بجوار زوجها «دى بوا».

وكان رئيس دولة غانا «رولنجز» قد أعلن فى يونيو ١٩٨٥م أنه خصص مقر «دى بوا» الذى كان يعيش فيه ليكون مركزًا لإحياء فكر الجامعة الإفريقية. وفى نوفمبر ١٩٨٥م أعلن الرئيس الغانى أن مركز «دى بوا» قد صار أثرًا من الآثار القومية، وهو مركز يضم معرضًا لمخلفاته، وقاعات للمحاضرات، وعروضًا للسينما، ومكتبة ضخمة لتخدم الباحثين الذين يدرسون تاريخ وتطور الجامعة الإفريقية، وهو التراث الذى خلفه «دى بوا» لتتاح معرفته والاطلاع عليه من الجيل الحاضر والأجيال المقبلة.

فمن هو هذا الرجل الذى نال كل هذا التقدير من حكومة غانا؟ إنه الدكتور «إدوار بورجارت دى بوا» الذى يلقب بأبى الجامعة الإفريقية، فهو أول من نادى بفكرة الجامعة

الإفريقية منذ بدايات هذا القرن، قبل أن تظهر هذه الدعوة بين أبناء القارة نفسها. وكانت أفكاره هى من أضاء الطريق لقيادات حركات التحرير الوطنى الإفريقى من أمثال نكروما وجومو كينياتا وأزيكوى ونيريرى وكاوندا وغيرهم. وتبلورت فيما بعد فى منظمة الوحدة الإفريقية.

ولد دى بوا فى فبراير ١٨٦٧م بولاية ماسو شوستس من أب زنجى وأم ترجع جذورها إلى عبيد هولندا، وهو من أبرز الشخصيات فى تاريخ أمريكا فى الدفاع عن الجنس الأسود وتحريره من عبودية البيض، وتعتبر أعماله على قدر كبير من حيث القدر والكفاءة، وهى تبلغ ١٩ كتابًا، ومئات المقالات والمحاضرات، و١٥٠ ألف ورقة من وثائق وملاحظات ومسودات ورسائل تتناول ظروف الحياة والحاجات والطموحات الخاصة بزنوج أمريكا وشعوب إفريقيا. هذه الأعمال تعتبر خير شاهد على عظمة هذا الرجل. وقد نال «دى بوا» التقدير من كل أنحاء العالم ما عدا وطنه أمريكا. فقد ألقت حقيقة أنه زنجى من أصل إفريقى ظلالاً من التجاهل عليه وعلى أعماله وآثاره. وكان دى بوا يشعر بهذا التجاهل، وعبر عنه فى مرارة فى عيد ميلاده الحادى والتسعين من راديو بكين بقوله: «لقد كنت فى وطنى مدة نصف قرن تقريبًا لا شىء غير زنجى حقير».

وقد اتهم دى بوا فى عهد مكارثى سنة ١٩٥٣م بتهمة النشاط المعادى لأمريكا بسبب دعوته من أجل السلام، ودفاعه عن علاقات الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتى والصين، فلما برئ من هذه الاتهامات سافر هو وزوجته إلى غانا حيث دعاه الرئيس الراحل «كوامى نكروما» إلى غانا ليشرف على إعداد دائرة معارف إفريقية. وهو المشروع الذى حلم «دى بوا» به كثيرًا. فمنذ عام ١٩٠٩م وهو يخطط لإنشاء دائرة معارف إفريقية. ولكن المشروع عاقه قيام الحرب العالمية الأولى. وفى عام ١٩٣٤م اختارته جامعة أطلانطا ليرأس تحرير مشروع جديد لإعداد ونشر دائرة معارف الزنوج. وقضى دى بوا عشر سنوات فى جهود شاقة لتحقيق هذا المشروع، ولكن نقص التمويل حال دون اتمامه.

يرتبط اسم الدكتور «دى بوا» فى التأريخ لحركة الوحدة الإفريقية بمؤتمرات الوحدة الإفريقية التى ترأس معظمها. وفى أول هذه المؤتمرات الذى عقد فى لندن فى يوليو سنة ١٩٠٠م قدر لدى بوا أن ينشر أفكاره على نطاق واسع لأول مرة، وفيه قال قولته

الشهيرة: «إن قضية القرن العشرين هى قضية الاختلافات اللونية، قضية العلاقة التى تقوم بين الأجناس الأميل إلى البشرة الفاتحة، والأجناس الأميل إلى البشرة القاتمة فى آسيا وإفريقيا وجزر البحار».

آمن «دى بوا» أن البشر جميعًا متساوون، وأنهم جميعًا يسهمون فى التراث والحضارة البشرية على مر التاريخ، بما فيهم الشعوب الإفريقية، يقول: «فمن أعماق الغابة السوداء عرفت الإنسانية صناعة صهر الحديد، وازدهرت التجارة والزراعة فى الوقت الذى كانت تعيش فيه أوروبا فى حالة الوحشية، وأنه بناء على هذا الدور المتكافئ الذى تلعبه جميع الأمم فى التطور الحضارى، فيجب المساواة بين جميع أبناء البشر».

ورأى دى بوا أن تحقيق العدالة والمساواة للزنوج الأمريكيين لن يكون إلا إذا أخرج الزنوج قضيتهم من حدود التفكير الإقليمى وربطوها بقضية الشعوب الإفريقية كلها. ونبه زنوج أمريكا إلى أن القضايا الإفريقية هى قضاياهم، وأن فى استقلال إفريقيا ووحدة شعوبها الطريق لإنهاء التفرقة العنصرية. واستمر دى بوا ينادى بأن يسهم المثقفون والفنيون الزنوج فى أمريكا بخبراتهم فى مشروعات التنمية فى إفريقيا.

كانت أهم عناصر الوحدة أو الجامعة الإفريقية عند «دى بوا» هى حق تقرير المصير للشعوب، والحرية الفردية، والاشتراكية الديمقراطية كأسس لنظم الحكم فى الـ «بان إفريقية»[1]. ومن الناحية التنظيمية أنشأ «دى بوا» عندما ألف حركة نياجرا عام

(١) الـ «بان إفريقية ـ Pan Africanian» هى الجامعة الإفريقية، وقد عقد المؤتمر التأسيس للدعوة لفكر الجامعة الإفريقية فى لندن عام ١٩٠٠م وهو أول تجمع يعلن توحيد حركة الزنوج مع التطلع لمشاركة أبناء القارة. وبعد ما يقرب من عقدين وبالتحديد فى عام ١٩١٩م عقد فى باريس المؤتمر الإفريقى العالمى الثانى للجامعة الإفريقية جمعية ممثلى زنوج أمريكا «مع أبناء المستعمرات الفرنسية» وفيه رفع شعار إفريقية للإفريقيين». وفى بروكسل عام ١٩٢١م عقد المؤتمر الثالث للجامعة الإفريقية. وفى عام ١٩٣م عقد المؤتمر الرابع فى لندن ثم انتقل إلى لشبونة، وكان أهم مطلب فى قراراته أن يكون للإفريقيين صوت فى حكم بلادهم. وعقد المؤتمر الخامس فى نيويورك عام ١٩٢٧م، ثم حالت الحرب العالمية الثانية دون مواصلة عقد هذه المؤتمرات حتى عام ١٩٤٥م حيث عقد المؤتمر السادس فى مانشستر بإنجلترا، ولأول مرة يقود المؤتمر زعامات إفريقية شابة مثل نكوما وجوموكنياتا، وفى المؤتمر ظهرت الأفكار المتطورة للجامعة الإفريقية وطالب المجتمعون بالحكم الذاتى والاستقلال لإفريقية السوداء. وكان المؤتمر السادس هذا آخر المؤتمات التى تعقد على أرض الغربة. لتنتقل بعد ذلك إلى موطنها إفريقية، ففى عام ١٩٥٨م انعقدت حركة الجامعة الإفريقية لأول مرة على أرض إفريقية فى أكرا (غانا) باسم المؤتمر الأول لدول القارة المستقلة شمل برنامجه تسع نقاط: أولها إفريقية للإفريقيين، ولايات متحدة إفريقية، نهضة إفريقية =

١٩٠٥م مكتبًا خاصًا بها للدعوة للجامعة الإفريقية، كان يتبادل منه الرسائل مع المثقفين من زنوج إفريقيا. وكان يحاول أن يحظى بتأييد الطبقة العاملة فى جميع أنحاء العالم لهذه القضية؛ وذلك بتوثيق جهوده وأفكاره مع أنصار الجامعة الإفريقية فى جميع أنحاء العالم.

مؤتمرات الجامعة الإفريقية

لم تأت منظمة الوحدة الإفريقية من فراغ. ولم تقم فقط بفضل جهود الزعامات والقيادات الإفريقية التى قادت شعوبها إلى التحرر والاستقلال. وإنما كانت حصيلة جهود وكتابات ولقاءات ومؤتمرات عقدت منذ بدايات القرن، وكان دى بوا من رواد هذا النشاط والدعوة إلى الرابطة أو الجامعة الإفريقية، ووهب حياته وجهده ونضاله فى الدعوة لها.

يقول دى بوا فى مذكراته: «إن إفريقيا بلا شك هى وطنى، ومع ذلك فلم ير والدى ولا والد والدى إفريقيا على الإطلاق. كما لم يعرفا معناها أو اهتمامًا بها.. ولكن الرابطة الجسدية هى أقل الروابط، وسمة اللون غير هامة نسبيًا سوى أنها مجرد علاقة.. إن الجوهر الحقيقى لهذه القرابة هى التراث الاجتماعى للعبودية والتفرقة العنصرية والمهانة».

وقد تعرف «دى بوا» على ماهية الجامعة الإفريقية فى عام ١٩٠٠م عندما دعاه محام من ترنداد هو «هـ. ويلز» إلى لندن لحضور أول مؤتمر يعقد للدعوة لفكر الجامعة الإفريقية. وفيه تنبأ «دى بوا» بأن مشكلة القرن العشرين هى مشكلة اللون، علاقة الملونين بغير الملونين فى إفريقيا وآسيا وأمريكا وجزر البحار.

وبعد ما يقرب من عقدين، وبالتحديد فى عام ١٩١٩م عقد فى باريس المؤتمر الإفريقى العالمى الثانى للجامعة الإفريقية برئاسة «دى بوا».. وعلى منصة المؤتمر هتف

= ثقافية مصممة على إعادة تشكيل المجتمع الإفريقى بأن يؤخذ من ماضيه ما هو قيم ومرغوب فيه وجعله قومية إفريقية تحل محل النظام القبلى، النهوض بالاقتصاد القومى للدول الإفريقية ليحل محل النظم الاقتصادية الاستعمارية، الإيمان بالديمقراطية كأعظم وسيلة للحكم، نبذ العنف كوسيلة من وسائل الكفاح ما لم يقابل بأعمال قمع عسكرية، تضامن الشعوب السوداء فى كل مكان، الحياد الايجابى بعدم التورط كأطراف منحازين فى سياسة القوى الكبرى.

«دى بوا»: «لقد عقدت العزم أن نجعل إفريقيا تسمع شكواها للعالم». . ولكن برغم هذا الحماس، انتهى المؤتمر دون أن يشير فى قراراته إلى حق الإفريقيين فى الاستقلال. واكتفى بنص: «على أن يكون للمواطنين فى إفريقيا حق الاشتراك فى الحكومة بمجرد أن يسمح تطورهم بذلك».

وفى بروكسل عام ١٩٢١م عقد المؤتمر الثالث للجامعة الإفريقية، وكان المطلب الرئيسى الذى طالب به الجنس الزنجى عن طريق الطبقة المستنيرة فيهم، هى إقامة حكم ذاتى محلى للجماعات المتأخرة يزداد باطراد كلما زادت خبرتهم ومعرفتهم حتى يصبح حكما ذاتيّا. . وقد ركز «دى بوا» فى خطابه للمؤتمر على العلاقة بين الأجناس والديمقراطية بقوله: «إن أول مبادئ الحكمة فى العلاقات بين الأجناس هو إيجاد هيئات سياسية بين الشعوب المغلوبة على أمرها، ومن الواجب أن تعم شريعة الديمقراطية العالم كله».

وفى عام ١٩٢٣م عقد المؤتمر الرابع للجامعة الإفريقية فى لندن ولشبونة معًا. وكان أهم مطلب فى قراراته هو: «أن يكون للإفريقيين صوت فى حكم بلادهم».

ويعد المؤتمر الخامس للجامعة الإفريقية آخر المؤتمرات التى دعا إليها وأشرف عليها «دى بوا» وعقد المؤتمر فى نيويورك عام ١٩٢٧م. ثم حالت الحرب العالمية الثانية دون مواصلة عقد هذه المؤتمرات. ولكن فى الوقت نفسه انتشرت أفكار التحرر والاشتراكية التى تبناها الطلبة الإفريقيون الذين كانوا يدرسون فى الخارج ـ فى إنجلترا بالذات.

وفى عام ١٩٤٤م انضمت ١٣ منظمة خيرية وطلابية وسياسية، وكونت معًا ما يسمى بـ «الاتحاد الفيدرالى». وفى العام التالى ١٩٤٥م، دعا هذا الاتحاد إلى المؤتمر الإفريقى العالمى السادس، وعقد فى مانشستر بإنجلترا. ولأول مرة يقود المؤتمر زعامات إفريقية شابة من أمثال «نكروما». وقد بارك «دى بوا» هذا النشاط، وظهر فى المؤتمر أشيب الشعر يبدو وكأنه ناسك.

وفى هذا المؤتمر ظهرت الأفكار المتطورة للجامعة الإفريقية. وطالب المجتمعون بالحكم الذاتى والاستقلال لإفريقيا السوداء. . وجاء فى وثيقته« . . إننا عاقدون العزم أن نكون أحرارًا». . وإذا كان العالم الغربى مصممًا أن يحكم الجنس البشرى بالقوة، فإن الإفريقيين قد يضطرون أن يلجؤوا للقوة كملجأ أخير فى محاولتهم لنيل

حريتهم . . إننا ظللنا شعبًا صابرًا ردحًا طويلاً من الزمن، نضحى ونكد عن طيب خاطر، ولكننا لسنا راغبين فى الهلاك جوعًا، بينما نقوم بدور الكادحين لكى نقيم بعرقنا أود أرستقراطية زائفة واستعمار منبوذ» .

وكان المؤتمر السادس هذا نهاية مرحلة تبناها بدرجة كبيرة مفكرو الزنوج والطلبة الإفريقيين فى أرض الغربة، لتنقل بعد ذلك إلى وطنها إفريقيا . . وتحت شعار إفريقيا للإفريقيين بدأت الجهود لتكوين منظمة الوحدة الإفريقية .

وكما انتقلت فكرة الجامعة الإفريقية إلى أرض الوطن الأم إفريقيّا، انتقل «دى بوا» إلى إفريقيا واستقر فى غانا . وفى عام ١٩٦٣م منحه المجلس الرئاسى الغانى لقب مواطن غانى . . وفى ٢٧ أغسطس من العام نفسه توفى «دى بوا» عن عمر يناهز ٩٥ عامًا . توفى قبل أن يشهد مولد منظمة الوحدة الإفريقية التى نشأت فى العام ذاته . وهى الفكرة التى وهب حياته للدعوة لها . . ولكن جهوده لم تذهب هباء ولم يطوها النسيان . . وكرم «دى بوا» كأحد أبناء إفريقيا العظام .

* * *